مرايا الروح

مرايا الروح

رواية

مينا سامي

تصميم الغلاف: أحمد فرج

تدقيق لغوي: محمد عبد الغفار

رقم الإيداع:5717 /2016

I.S.B.N: 978-977-488-456-6

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة: 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور،

المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام: يحيى هاشم

هاتف: 01144552557 - 01147633268

E – mail:daroktob1@yahoo.com

Facebook: دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، 2016م

مرايا الروح

مينا سامي

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع



لمدة ثلاثة أيام متتالية، انتابتني حالة من النوم المتقطع، بل لا أدري هل كنت نائمًا بالفعل أم مستيقظًا ساعتها.. لمدة ثماني ساعات خلال ثلاثة أيام أحلم بهم.. يغزون أحلامي ويحرمونني من النوم من فرط التفكير.. شيء سيئ يراودني باستمرار في ليالي الامتحانات، لكن بدلًا من المعلومات التي تتخلل عقلي ليلة كل امتحان، تخللوني هم..

«كريم» غير راضٍ عن نهايته، يرى أنها غير عادلة من وجهة نظره. حاولت إقناعه بأنها أعدل نهاية له، لكنه لم يقتنع إطلاقًا؛ لذا حاولت تجاهله، لكنه استمر في استفزازي وجعل النوم الممتع جدًّا بالنسبة لي مكروهًا لثلاثة أيام، حتى قررت تنفيذ رغبته، لكن بشروط قلتُها له، وأخيرًا اقتنع بها ولله الحمد، واقتنعت بها أنا أيضًا، وإلا ما كنت لأوافق على طلبه..

ما إن انتهيت من «كريم» حتى أتت «دينا» إليّ تطلب تغيير جزء من حكايتها، وكانت محقة بالفعل؛ فأنا قد ظلمت «دينا»، لكنها في النهاية وجهة نظري أنا ولا يحق لها التدخل فيها إطلاقًا، لكنها رفضت.. ولأن «دينا» طيبة، قررت أن أخدعها فصدقتني بسهولة

وتركتني..

«دارين» لم تعترض على شيء؛ فهي كاملة كما رأيتها دومًا؛ لذا فأنا ممتنٌّ لها من كل قلبي..

توطدت علاقتي بـــ«مالك» كثيرًا خلال فترة قصيرة؛ لذا كنا على درجة من التفاهم والتواصل والقبول منعته من إحراجي أو رفضِ طلبٍ لي؛ لذا لم يحاول أن يقول أي شيء..

«نجوى» و«جسار»، بما أنهما مزعجان، فقد أزعجاني كثيرًا جدًّا، كما أزعجني «كريم» بالضبط.. وبما أنني أكره «نجوى» و«جسار» كراهية خاصة؛ لذا فلم أحاول حتى أن أتناقش معهما أو أستمع لوجهة نظرهما.. تجاهلتهما تمامًا، وهذا ما يستحقانه..

كشفتُ مرايا أرواحهم جميعًا؛ لذا قرروا الانتقام مني وتشتيت تفكيري طوال مدة الكتابة.

القاهرة 2014

في عمارة تتكون من أربعة طوابق بمنطقة حدائق الأهرام، يعيش دكتور «كريم جسار» في آخر طابقين بمفرده، في فيلا متصلة بسلم داخلي مع السطح.. منزله مبهر الأثاث، كل ركن فيه رائع التصوير.. حرص أشد الحرص أن يكون منزله فارهًا ليشعر بثرائه ويشعر بذلك أي زائر أيضًا، لكن المنزل، على الرغم من هذا، غير منظم بالمرة، وهذا طبيعي لرجل يعيش فيه وحيدًا يرمح في هذه المساحة كلها..

يجلس «كريم» على الكنبة مستلقيًا مادًّا قدميه العاريتين أمام منضدة تزاحمت عليها زجاجة من نوع «**cream sherry**» ماركة «**taylor**» (خمر إسبانية قوية، نادرًا ما تجدها في مصر)، وبعض زجاجات بيرة فارغة وعلبة سجائر مارلبورو أحمر مستوردة ومطفأة تزاحمت فيها أعقاب السجائر.. كان ثملًا.. زائغ العينين..

منفعلًا.. وجهه أحمر.. وضع «فلاشة» في التلفاز الخاص به وبحث عن أغنية بعنوان «كل أصحابي فلوا» للنجمة الواعدة «هبة طوجي»، صدح صوتها الرائع في المكان وهي تقول: «الغربة كبرت فينا وصار الوطن أكبر.. يا حلو لو فينا نرجع الماضي ونصغر».

جاء في باله وقتها «دارين»، ذلك الملاك الذي لم ولن يعشق سواه.. قطع عليه جلسته وانتشاءه صوتُ جرس الباب.. قام متثاقلًا ونزل إلى الطابق الثالث ليفتح الباب.. كانت الساعة حوالي الثالثة ظهرًا..

– مساء الخير يا دكتور «كريم».

– مساء النور.. «مريم».. مش كده؟!

«مريم»

فتاة في آخر سنة من كلية الطب، جامعة القاهرة.. عمرها تقريبًا ثلاثة وعشرون عامًا.. شعرها أسود ناعم وعيناها سوداوان.. طويلة نسبيًّا وترتاح للنظر إليها.. تعيش في الطابق الثاني هي وصديقتها «نرمين» التي تصغرها بسنتين، لكنها في «إعلام» ومعها في الجامعة نفسها.. تستأجر هذه الشقة لتكون إلى حدٍّ ما أقرب إلى الجامعة، بعيدًا عن بيوت الطالبات الخربة.

«مريم» ممسكة بطبق به بعض الحلويات.. تقدمت خطوة قائلة:

– اتفضل يا دكتور.. حاجة حلوة كده، أنا عارفة إنك عايش لوحدك ومش بتلاقي اللي يعملّك حاجة حلوة.

– متشكر جدًّا يا «مريم» بجد.. أسنانك خفت؟

– عيب يا دكتور أكون بتعالج عند دكتور «كريم جسار» بنفسه وأسناني ما تخفش.

لم يكن «كريم» في حالة مزاجية تسمح بالمزاح.. ابتسم بصعوبة ليبلع هذه المجاملة السخيفة..

– آخر مرة نسيتي ورق كان معاكي عندي في العيادة.

– آه، مانا جاية آخده حضرتك.

– طيب اتفضلي.. هطلع أجيبهولك.

– مش عيب؟ حضرتك قاعد لوحدك.

– هو أولًا: أنا قد والدك، ثانيًا: لو حاولت أتحرش بيكي صوَّتي.. أظن سهلة!

– هههههه.. لا يا دكتور عيب.

دخلت «مريم» وهي تنظر حولها بإعجاب، متفحصة بيته الفخم، حتى جلست في الصالة في الطابق الأسفل على كنبة خشبية بنية اللون شديدة الجمال.. وأمامها «كريم»، الذي على الرغم مما كانت ترتديه من ملابس قصيرة لم تلفت انتباهه مطلقًا..

– رأيك أتخصص إيه يا دكتور؟

– دي حاجة ترجعلك.. القسم اللي حاسة إنك ممكن ترتاحي فيه ادخليه.

- أنا بفكر في مخ وأعصاب أو نفسي.

- طيب كويس.

«كريم» كان باهتًا جدًّا، سواء في حالته المزاجية أو ردوده.

- هو حضرتك مش متجوز؟

- لأ.

ثم أشارت إلى صورة بجانب الكنبة عليها وجه طفل وسيم:

- مين ده يا دكتور؟

- ما أعتقدش إنها حاجة تخصك.. إيه التطفل والقرف ده؟!

احمرَّ وجهها من الصدمة والإحراج، وقالت بصوت منخفض:

- أنا آسفة بجد.

- حصل خير.. معلش أنا متضايق شوية.. خليكي، هطلع أجيبلك الورق.

نظرت إليه بتمعُّن وهو يصعد السلم.. ظهره منحنٍ قليلًا وشعره طويل غير مصفف بعناية، تخللته بعض الشعيرات البيضاء هو وذقنه.. لكن شكله في المجمل وسيم..

عشر دقائق ولم ينزل.. نادت بصوت مرتفع:

- يا دكتور.. دكتور «كريم».. فيه حاجة؟

لم يُجِب.. صعدت إلى الطابق العلوي لتجده مُلقًى أرضًا منقطع

النفس..

فزعت «مريم» وصرخت:

– يا دكتور.. يا دكتور! يا نهار اسود.. أعمل إيه أنا دلوقتي؟

هرعت إلى هاتفها لتطب الإسعاف error in connection..

نزلت إلى صديقتها «نرمين» وهي تصرخ:

– الحقيني بسرعة.

– فيه إيه يا بنتي؟ خضيتيني.

– دكتور «كريم» وقع من طوله فوق.. تعالي بسرعه نشيله سوا ونوديه المستشفى بعربيتي.

– هنشيله ازاي؟ مش هنعرف.

– اخلصي.. مش هنحكي.

قامتا بحمله بصعوبة، وبمساعدة أحد الجيران تمكنتا من وضعه في السيارة.. تطلب الأمر للخروج من حدائق الأهرام والوصول إلى المستشفى حوالي ساعة لم تخلُ من الزحام الشديد والألفاظ الوقحة وتبادل السباب بين السائقين.. ما إن وصلوا إلى المستشفى عند مدخله حتى وجدوا حارسًا متبلد الملامح يبدو وكأنه قد تعاطى «باكتة» من الترامادول.. تقدمت «مريم» فأوقفها قائلًا:

– الدخول بخمسة جنيه يا هانم.

- افتح بسرعة.. معايا واحد بيموت يا متخلف.

- وليه الغلط ده بس؟!

- افتح يا إما صدقني هانزل أضربك بالجزمة.

تمتم بألفاظ بذيئة ثم فتح الباب.. دخلت بالسيارة حتى جاءها ممرضان بعربة نقالة.. وضعوا «كريم» عليها كالجثة ثم جروا به إلى غرفة العناية المركزة.. انتظرت ساعة كاملة حتى جاءها طبيب شاب:

- إيه اللي حصل بالظبط؟

- أنا مرة واحدة لقيته وقع من طوله.

- حضرتك مراته؟

- لأ.. أنا جارته.

- ماشي.. هو مش هيطلع ويفوق غير بعد 12 ساعة تقريبًا.

- هو عنده إيه بالظبط؟

أحب أن يظهر نفسه ويتفلسف عليها لكونه طبيبًا.. رد بجملة واحدة:

- shortness of coronary artery.

- ضيق في الشريان التاجي؟! أكيد هو اللي سبب الجلطة، والحمد لله إني لحقته بسرعة قبل ما يعدي وقت كبير عشان نلحق ندوِّب الجلطة.. بس حضرتك غلطت في حاجة أظن! المفروض اللي يدخل الـــicu بسبب جلطة ما يطلعش منها ولا يفوق قبل 24

ساعة، مش كده؟!

– الأخت زميلة؟

– لأ، لسه في امتياز.

– ماشي يا دكتورة.. وجودك دلوقتي مالوش لزمة أعتقد، فروَّحي دلوقتي وتعالي بكرة.

– ماشي.. الاسم بس عشان لما آجي واسأل؟

– «محمود».

– تمام يا دكتور..

تطلع إليها «محمود» والابتسامة تأكل وجهه..

***

ذهبت «مريم» إلى «نرمين» التي كانت منتظرة بالخارج.. أدارت محرك السيارة ونظرت إلى الحارس البدين باشمئزاز وهي خارجة.. توقفت عند أحد الباعة لتنزل وتشتري جرائد اليوم:

– «المصري اليوم» لو سمحت.

– اتفضلي يا آنسة.

كان العدد بتاريخ **2014/10/1**..

أعطته حسابه وذهبت إلى سيارتها.. الطريق متوقف ومزدحم للغاية.. ألقت نظرة سريعة فلفت انتباهها خبر في صفحة الحوادث بعنوان «العثور على جثة طبيب نفسي ملقاة على أول طريق مصر –

الفيوم الصحراوي صباح اليوم».. تنهدت «مريم»:

- يا ساتر يا رب.

ضحكت «نرمين»:

- شوفتي؟ دي آخرة الدكاترة النفسيين.

- لأ خلاص، أنا هتخصص أطفال.

- اسمه إيه الدكتور ده؟

- «مالك ممدوح».

- الله يرحمه.

وصلتا إلى المنزل في ساعة إلا الربع.. وهما على السلم قالت «مريم»:

- أنا شكلي نسيت شقة دكتور «كريم» مفتوحة.

- طيب اطلعي اقفليها، أنا داخلة آخد **shower**.

صعدت إلى الدور الثالث وكان الباب مفتوحًا بالفعل.. فضول قاتل لتدخل وترى فيلا هذا «الكريم» غريب الأطوار.. لماذا يعيش في فيلا بحجم هذه وحيدًا؟! أين زوجته؟ ومن الطفل الذي نهرها بسببه؟! دخلت ودارت بأول طابق.. دخلت الغرف وهي مبهورة بجمال البيت.. صعدت إلى الطابق الأعلى لتجد المنضدة التي كان يجلس عليها.. رأت بعض زجاجات الخمر وفي درج أسفل المنضدة كان مفتوحًا لنصفه، وجدت السجائر ولفت انتباهها وجود بعض شرائط

كاسيت لا يوجد عليها سوى تواريخ، شريط منها كان بتاريخ أمس (2014/9/30)، لا يوجد عليها أي بوستر ولا تبدو كأنها شرائط أغانٍ.. تركتها ودخلت الغرفة.. رائحتها ملوثة بدخان سجائر بائت.. الغرفة غير مرتبة والكثير من الملابس مُلقى أرضًا.. عبثت في مكتبه فوجدت في أول درج رزمة من الورق مكتوبًا أعلاها «مرايا الروح»، وفي ثاني درج مسدسًا!! وكان بجانبه كارت مكتوب عليه «مالك ممدوح». أعادت قراءة الاسم مرة أخرى! نعم هو الاسم نفسه الذي رأته في صفحة الحوادث منذ ساعة واحدة فقط!! يا الله! ما هذه الصدفة؟! ما الذي يحدث؟! ما علاقة «مالك» بـ«كريم»؟! هل «كريم» مريض نفسيًّا أم أنه مجرد زميل له؟! فتحت الدولاب وفتشت عن شيء لا تعرفه، لكنها لم تجد شيئًا مثيرًا للفضول.. الشك يحفر عقلها.. «كريم» لن يعود إلى منزله إلا بعد خمسة أيام على الأقل..

سوف آخذ هذه الشرائط وأسمعها لأعرف ما تحتوي.

مما لا شك فيه أن هذه ليست مجرد صدفة، إنما هي علامة أو هدف جعلني أشتري الجرائد ويلفت انتباهي اسم «مالك ممدوح» ثم أصعد إلى منزل «كريم» لأجد الكارت الذي يحمل الاسم نفسه.. أجزم أن هذه ليست مجرد صدفة.. بحثت عن كيس ووضعت به أشرطة الكاسيت.. لم يكن في نيتها وضع المسدس، لكن الخبر رنَّ في دماغها بالتفصيل مرة أخرى «وقد تم العثور على جثة طبيب نفسي ملقاة في أول طريق مصر – الفيوم صباح اليوم مصابًا بطلق ناري في رأسه»؛ لهذا قررت أخذ المسدس أيضًا ولم تنسَ أن تأخذ مفاتيح شقة

«كريم» حتى تعيد هذه الأشياء قبل عودته للمنزل.. شعرت للحظة بأنها ساذجة أو واسعة الخيال!!

هو أي حد عنده مسدس ويعرف الدكتور اللي اتقتل يبقى هو اللي قتله؟!

لكنها طردت هذه الفكرة.. بعد أن جمعت الشرائط والمسدس، تركت كل شيء كما كان.. أغلقت باب الشقة ونزلت إلى شقتها لتدخل غرفتها من دون كلام مع «نرمين».. خرجت مرة أخرى لتسأل عن وجود أي كاسيت لكنها لم تجد شيئًا كهذا.. صعدت مرة أخرى إلى شقة «كريم» وبحثت بدقة في كل ركن من أركان الشقة حتى وجدت كاسيت.. خبَّأته بإحكام حتى نزلت شقتها ودخلت غرفتها وأغلقت الباب بالمفتاح.. وضعت أول شريط، وهو ذو أقدم تاريخ بينها، وبدأت في الاستماع.

***

الشريط الأول

غرفة متوسطة الاتساع إضاءتها خافتة باللون الأصفر.. الحوائط بنية اللون يعلوها تكييف أبيض.. موسيقى كمان هادئة تغلّف المكان.. يجلس «مالك» على مكتب كبير لونه بني قاتم بجانبه كوب شاي أخضر بالنعناع.. يدخل عليه «كريم» متثاقل الخطى مهمومًا.. ابتسم له «مالك»:

- اتفضل يا أفندم.

- مساء الخير.

- مساء النور يا أستاذ «كريم».

- دكتور على فكرة.

- أنا آسف بجد.. مساء الخير يا دكتور «كريم».. دكتور إيه بقى؟

- أسنان.

- يا أهلًا.. تحب تقعد على الشيزلونج ولا تقعد قدامي على المكتب؟

- لأ، أنا هرتاح على المكتب.

قام «مالك» من كرسيه وجلس بمحاذاته على الكرسي الذي أمامه:

- إيه مشكلة حضرتك بقى؟

- تسمحلي الأول أسجل الجلسة دي؟

- آه طبعًا، على راحتك على الآخر.

- الأول بس أنا أضمن منين إن كل اللي هيحصل هنا وهيتقال هيبقى سر؟

- مفيش أي ضمان.

- ازاي؟!

- يعني مفيش ضمان.

ألقى «مالك» ابتسامة مستفزة ثم قام من أمامه وعاد إلى كرسيه.. لاحظ «كريم» مشيته وظهره المستقيم المشدود وذقنه الحليق وأيضًا شعره القصير المهذب بعناية.

- طيب ممكن تحلف إنك هتحافظ على أسراري؟

- يا دكتور انت جاي لدكتور نفسي مش وكيل نيابة، لو مش

مرتاح انت مش مضطر إطلاقًا إنك تقعد ونكمل الجلسة، ولا أنا مضطر برضه إني أحلف.. حضرتك تقدر تمشي حالًا وتمن الكشف بالكامل هيرجعلك.

– مش هقدر أعمل كده.

– باين عليك.. تحت عينيك اسود.. انت مش بتنام، واضح.

– أنا طول عمري مش بنام، ولو نمت مش بشوف غير الكوابيس وبس.. أنا تعبت أوى من حياتى.

– ما هي الحياة إيه إلا تعب وشقا؟

– تعب وشقا بس ممزوجين بالعبث حضرتك..

– عبث؟! تعرف فيلسوف اسمه ألبير كامو؟

– لأ.

– انت منطقك في الحياة أشبه بمنطقه.. «كامو» شايف إن الإنسان بيعيش طول عمره يدوَّر على معنى وهدف لحياته، مع إنه شايف برضه إن الحياة قائمة على العشوائية، على اللامعنى واللاهدف.. شايف إن العبث هو اللي بيتحكم في حياتنا، العبث هو السيد.. لو انت من أنصار مذهب «كامو» فيؤسفني أقولك إن مصيرك مش هيختلف كتير عن مصير بطل أسطورة سيزيف، وهو الشقاء الأبدي في اللاهدف.

– ....

– افتحلي قلبك يا «كريم» واحكيلي.

– عارف يا دكتور؟ أنا بعمل كل حاجة عشان أموت وأخلص من الشقا اللي انت بتحكي عنه ده، بشرب سجاير وخمور وحشيش على أمل إني أنتهي، بس مفيش، وللأسف ما عنديش الجرأة على الانتحار.

أدرك «مالك» من بداية الحديث أن «كريم» مريض نفسيًّا وغير سوي من الدرجة الأولى.. حركة يديه وجسمه المنفعلة.. كلامه غير المنمق.. كوابيسه وحرمانه من النوم.

– على فكرة.. الحياة مش قبيحة وما تستحقش إني أهرب منها للدرجة دي، يمكن التعب والشقا شيء أساسي فيها، بس برضه الحياة فيها حاجات حلوة تستحق الواحد يتعب ويعيش عشانها.

– أنا المر اللي دقته نسّاني طعم كل حلو.

– بص يا «كريم».. مش هقولك احكي كل حاجة، لأ.. احكي اللي عايز تحكيه وبس، وتأكد إنك هترتاح بنسبة كبيرة لما تحكي.

– ما عنديش خيار غير إني أحكي.

– جميل جدًّا.

– المأساة بدأت وأنا طفل...

القاهرة 1981م

في عمارة متواضعة بمنطقة فيصل.. يعيش في الدور الخامس أستاذ «جسار»، مدرس الكيمياء للمرحلة الثانوية.. لم يكن مشهورًا أو ناجحًا.. هو غير سوي فقط.. مريض بالشك، يعتقد دائمًا أن الجميع يكرهونه ويتآمرون عليه ويحسدونه على زوجته الجميلة..

زوجته «نجوى» فائقة الجمال، مُدرِّسة أحياء.. تعرَّف عليها في بداية عمله في المدرسة.. لم يحبها ولم يكرهها، لكنه تزوجها لمجرد الزواج والاستقرار ووجود بيت وأطفال وأسرة كالعامة.. لم تكن يومًا «نجوى» شريكة حياته، بل كانت غلطة حياته.. بعد أن أنجب «كريم» تيقَّن من ارتكاب جريمة في حق نفسه وفي حق هذا الطفل..

جريمة؟!

نعم، بلا أدنى شك كانت جريمة.. بعد مرور سنة واحدة كره

«نجوى» من أعماقه.. تلك الوقحة شديدة الجمال في عيون الناس وتلاميذها وشديدة القبح في عينيه.. مغرورة ومتكبرة ولا تهتم بولدها اهتمامَ أمٍّ أبدًا.. كانت بالنسبة لــ«جسار» baby sitter، بل إن الــbaby sitter أكثر حنانًا واهتمامًا بأولاد الناس منها.. كانت «نجوى» مُدرِّسة مشهورة يتهافت طلاب الثانوية العامة البؤساء على حجز الدروس عندها..

عشرون طالبًا تجمعهم على مكتب صغير وحقير تلقّنهم كلامًا باليًا تكرره يوميًّا وتجني الكثير من المال.. في حين كان «جسار» لا يجني المال سوى من مرتبه المحدود؛ حيث إنه لم يكن مشهورًا كمدرس ولم يكن محبوبًا أيضًا.. بدأ مع الوقت يشعر بحقد وغل.. يشعر بأنها رجل البيت وليس هو؛ فهي تجني من الدروس في أسبوع واحد ما يجنيه هو في شهر.. طالما طلبت منه في أثناء الدروس أن يحضر لها فنجان قهوة أو كوب شاي.. إحراج مستفز يحس به عندما تطلب منه «نجوى» طلبات كهذه أمام تلامذة وقحين أعينهم تدور في كل ركن من أركان شقته وتطول ما تستطيع تلصصه من جسد مدرستهم التي لم تراعِ يومًا أنها تعطي دروسًا لشباب مراهق في سن الــ18 وليسوا أطفالًا أبرياء..

بعد أن كان «جسار» يكتفي بالصمت عندما تطلب منه «نجوى» طلبًا كهذا، أصبح مع الوقت الرد واضحًا وجليًّا:

– قومي اعملي اللي انتي عايزاه يا بنت ... "سبها بألفاظ وقحة"

تشاجرت معه «نجوى» كثيرًا وطلبت منه أن يحترمها على الأقل

أمام الطلبة، لكنه لم يكن يبالي.. كان يتلذذ بإهانتها وإحراجها أمام الطلبة الذين يكرههم ويكرهها من قلبه.. جاء اليوم الذي طفح فيه الكيل.. نادت عليه «نجوى» بعصبية:

- «جسار».. والله العظيم لو ما احترمتنيش قدام الطلبة وبطلت تكلمني بالأسلوب القذر ده همشي وأسيبلك البيت ومش هتشوف وشي تاني.

نظر إليها باحتقار وفي يده زجاجة خمر:

- مع ألف سلامة.. الباب يفوت جمل.

- طيب لو مشيت «كريم» هيعيش ازاي؟ وهيصرف منين؟ أنا صابرة ومستحملة علشانه بس.

- هيعيش زي الفل.. انتي بتشوفيه أصلًا يا روح أمك؟

- أنا مش بشوفه أصلًا ليه؟! هاه! ما ترد.. عشان شغالة وطالع عين أهلي عشان أصرف عليه وعلى البيت، ولا تكون فاكر نفسك راجل وبتصرف مليم.. ده انت بتاخد كل مرتبك تضيعه على السجاير والخمرة.. مين اللي بيدفع مصاريف المدارس؟ مين اللي بيشتري الأكل والشرب وبيدفع الكهربا؟ مين اللي لما بيكون ابنك عيان بيوديه للدكتور وبيدفع مصاريف الكشف والعلاج؟ انت تقدر تقولي انت بتعمل إيه أصلًا؟! يا راجل، ده انت حتى ما فكّرتش تدوَّر بالليل على شغل بعد المدرسة اللي انت أصلًا بتروحها عشان تشرب قهوة وسجاير.. يا حبيبي صدقني انت ولا حاجة.. انت واقف علينا

بخسارة ومن غيري هتشحت وهتبيع هدومك.. كل ده وأنا صابرة ومستحملة وآخرها تخش قدام الطلبة تشتمنى؟! مبقاش غيرك يا خمورجي يا فاشل.. ولآخر مرة بقولك اوعى تكلمني كده تاني..

«جسار» في حالة مرعبة.. وضع زجاجة الخمر بجانبه ووجهه ينبض غضبًا.. قام متثاقلًا ثم انقضّ عليها بسرعة صقر انقض على ثعبان ثم اعتصره.. وضع يده اليسرى على شعرها ويده اليمني على رقبتها وبدأ في تضييق قبضته على الرقبة وشد الشعر بقوة من أطرافه ثم مال على أذنها وقال بصوت منخفض:

– انتي حشرة وعاهرة.. لو سمعتك بتقولي الكلام ده أنا مش هقتلك.. لأ.. أنا هخليكي تشتهي الموت في كل لحظة ومش هطولهولك.

زاد صوتها المبحوح في الأنين ثم استكمل:

– أنا عايش معاكي بقالنا تسع سنين ومستحملك بالعافية.. مستحمل غرورك وقلة أدبك.. عمري ما كنت بشرب لا خمرة ولا دخان غير من يوم ما عرفتك.. غلطة حياتي إني اتجوزتك.. مهما أوصفلك بكرهك قد إيه مش هعرف.. ادخلي أوضتك ومش عايز أشوفك ولا أسمع صوتك ده خالص..

ثم أفلتها من قبضته.. وقعت على الأرض تقريبًا مغشيًّا عليها تحاول التقاط بعض الأكسجين لينقذ جهازها التنفسي من الاختناق.. لأول مرة أحست بالخوف الشديد من «جسار».. مرعوبة منه رعبًا لم تعرفه من قبلُ.. كان كحيوان مفترس مخيف لأقصى درجة.. تطلّعت

إلى الأمام ورأت «كريم» المسكين واقفًا خلف الباب ينظر بعين واحدة وهو يرتعد خوفًا والدموع في عينه.. وهو مفزوع مضطرب يرى أحداثًا ويسمع كلامًا لا علم لطفل به.. قامت «نجوى» والدموع تنهمر من عينيها الملونتين الجميلتين باكيةً كطفلة، لم تكن قاسية كما يظن «جسار».. دخلت إلى غرفة «كريم» وهي تحاول أن تبتسم ابتسامة مكسورة لتضفي الأمان على ولدها.. احتضنته بقوة وأجلسته على فخذيها قائلة:

– ما تخافش يا حبيبي ومش عايزة أشوفك خايف وبتعيط كده تاني.. بابا كان بيهزر معايا بس هزار تقيل شوية.. اوعى تزعل منه أو مني.. إحنا بنحبك أوي أوي..

لم ينطق «كريم».. فقط أحس بالأمان والسلام في حضن أمه التي لم تحتضنه منذ فترة.. أحس أنه يحبها بشدة..

– انت النهارده بقى هتنام جنبي وفي حضني زي زمان.

ضمته إلى صدرها وخلدا إلى النوم..

***

– دي كانت بداية مأساة حياتي الملعونة، بس البداية الحقيقية لسه ما جتش.

– كانت إمتى يا «كريم»؟

– كانت وأنا عندي 18 سنة تقريبًا، ليلة امتحان الفيزياء بتاع ثانوية عامة.

– تحب نخليها للمرة الجاية؟

– ده أكيد.. مش قادر أحكي حاجة تاني دلوقتي.

– براحتك.. زي ما تحب.

– ممكن تكتبلي على أي حاجة تخليني أنام؟ أنا عيوني السهر دبِّلها.

– ماشي، خد **zolam**.. ده مضاد للاكتئاب والقلق، وقبل ما تنام بساعة كده خد قرص **calmepam 1.5 gm**، ده منوم كويس، لو ما جابش معاك هبقى أكتبلك على حاجة أقوى.. والجلسة الجاية خليها بعد بكرة.. تمام؟

– ماشي.. تمام.

– أشوفك على خير يا دكتور «كريم».. مع السلامة.

***

مكان مجهول لا توجد له أية معالم.. طريق طويل ممتد لا تستطيع أن ترى بعينيك أوله من آخره.. الجو غائم ولا توجد شمس، لكن يوجد ضياء بشكل عام.. الشيء الوحيد الذي تستطيع تمييزه من هذا المكان هو السماء.. استمر في المشي.. صرخ بأعلى صوته لعلّ أحدًا يسمعه، لكن لا صدى لصوته!! بعد مضي وقت تبين ملامح أمه «نجوى».. ناداها:

– ماما.. يا أمي.

– انت مين يابني؟!

– أنا «كريم» ابنك.

– «كريم» مين؟ أنا ما اعرفش حد بالاسم ده.

اشتد الضباب واختفت «نجوى» من أمامه.. وجدها بعيدة عنه بمسافة..حاول اللحاق بها وركض بسرعة، لكن وجهها لم يكن بمحاذاته.. ما إن أدركها واستدار ليرى وجهها حتى صرخ فزعًا.. لم يكن وجه «نجوى»! كان وجه فتاة أخرى يحفظه عن ظهر قلب!! الفتاة تحاول قتله و«نجوى» في قمة السعادة.. ضربته الفتاة بسيف في بطنه.. دمه يسيل وهو يحاول الصراخ ليجد مساعدة، لكن صوته خانه..

قام مفزوعًا ليجد نفسه ملقى على سرير في مستشفى.. تحسس بيده اليمنى أعلى فخذه فوجد شيئًا أشبه بحفّاظة وفي يده اليسرى كانيولا متصلة بمحلول جلوكوز.. دخل بعدها بدقائق طبيب ومعه ممرضة:

– بتصرخ كده ليه؟ وقعت قلبنا.

– إيه اللي حصلي؟ وإيه اللي جابني هنا؟!

– حصلتلك جلطة بسبب ضيق في الشريان التاجي.. والمدام هي اللي جابتك.

– مدام مين؟!

تدخلت الممرضة:

- اسمها «مريم».

- دي مش مراتي.. دي جارتي.

أكمل الطبيب:

- أيًا كان.. احمد ربنا إنها لحقتك قبل ما يمر أكتر من 6 ساعات على حدوث الجلطة.. السجاير الكتير دي اعتبرها ملغية من النهارده..

- أنا عايز أمشي حالًا.. أنا بكره المستشفيات.

- فيه دكتور بيكره المستشفيات يا دكتور؟!

قالها مبتسمًا.. لكن «كريم» كان في قمة الاشمئزاز؛ فهو حقًّا يكره أي مستشفى.

- أنا همشي إمتى؟

- لازم تفضل أسبوع على الأقل تحت الملاحظة، حالتك مش مستقرة إطلاقًا، أول ما نطمن إنك بخير هتمشي على طول.

- يستحيل.. مش هقدر أفضل قاعد القعدة دي كل المدة دي.. أقوم على الأقل من على السرير.

- ماشي، بس لحد البلكونة بس، ولو حبيت ممكن نكلم حد من أهلك ييجي يقعد معاك.

- لا مش عايز.

- على العموم في الأوضة اللي جنبيك بنت عندها 19 سنة،

اسمها «دينا» هتلاقيها أغلب الوقت في البلكونة، هي طيبة جدًّا وهتسليك.

– تسليني إيه وزفت إيه بس؟ إيه القرف ده؟ أنا عايز أستحمى حالًا وعايز معجون أغسل أسناني وهدوم غير جلابية المجانين دي.

ضحك الطبيب:

– من عيني يا دكتور.. روحي يا «وفاء» هاتي كل اللي هو عايزه.

– استني يا «وفاء».. هاتي معاكي علبة سجاير.. أرجوكي.

– سجاير تاني؟ انت مش قادر تفهم ليه؟ لو شربت يومين وهتروح الترب مش هترجع بيتكم.. انت راجل كبير وعاقل.. عيب الحركات دي.. الحمام جنبيك.. استنى ساعة يكون مفعول البنج راح وابقى ادخل استحمى..

خرج الطبيب والممرضة و«كريم» في قمة القرف.. بعد مُضيٍّ ساعة كاملة أتته «وفاء» بما طلبه.. دخل وأخذ حمامًا بمياه باردة كعادته.. لبس «الترنج» الذي أحضرته له «وفاء».. غسل أسنانه ودخل البلكونة.. تطلّع إلى الشارع والزحام ثم أخذ كرسيًّا جلس عليه ودماغه مزدحم بمئات الأفكار.. صداع مثل سرطان يأكل فيما تبقى من رأسه.. كان شاردًا، لمعت بذهنه أحداث وذكريات متعددة.. هام مع كل حدث وتذكره كأنه حدث أمس.. ملامحه تقلّبت بين الابتسامة والامتعاض والحزن واليأس والخوف.. فكر جديًّا

أن يلقي بنفسه من البلكونة.. إيه اللي هيحصل يعني؟! هخسر إيه؟ أصلًا أنا ما بقاش عندي اللي أخسره ولا حتى أخاف عليه.. طيب إيه اللي مانعني؟ أنا مستني إيه دلوقتي؟! مستني زي الروايات والأفلام حاجة حلوة تحصل وتغير مسار حياتي من الوحش للحلو؟! مستني حاجة ما جتش من أكتر من أربعين سنة لما كنت ساعتها لسه إنسان وبيمثل إنه عايش؟! حتى الإنسان الباهت ده مات من فترة.. أنا أقل حتى من الرماد ومستني نفخة عشان أتلاشى.. أنا عايش بربع رئة إن ما كانش أقل.. الدخان أكلها، وكلى الكحول حرقها، وقلب شرايينه مسدودة.. أنا ليه لسه عايش؟ حقيقي نفسي أفهم ليه! «مريم» لحقتني ليه؟! يا ترى لسه فيه أيام أوحش من اللي عشتها؟! وحتى لو فيه، ما أعتقدش إني هتأثر.. مش ممكن.. حتى الموت بقى طلب صعب المنال! ورغم كل ده ما عنديش جرأة إني أنتحر ومش لاقي لده أي تفسير.. بس لأ.. لازم يكون عندي شجاعة إني أرمي نفسي.. هخاف من إيه؟!

الموضوع مش هياخد أكتر من خمس ثواني وهقع جثة.. قام من كرسيه واقترب من سور البلكونة.. أغمض عينيه ومد يده أكثر للأمام.. ضربات قلبه تضاعفت سرعتها.. بلع ريقه بصعوبة.. حين ذلك دخلت «دينا»:

«دينا»

«أذكر جيدًا حين كان يصيبني ألم في ظهري نتيجة الوقوف لفترة طويلة أو الجلوس على كرسي ظهره غير مريح، كنت بلا تردد آخذ قرص **olfen 100**، الذي أوصاني به طبيبي، موضحًا أنه أقوى مسكن لألم العظام عامة، لكن يجب ألا أتناوله بإسراف نتيجة لتسببه في تقرح المعدة والكثير من الأعراض الجانبية المضرة مستقبلًا.. كم اشتقت لكِ يا آلام ظهري! كم كنتِ هينة وحنونًا بأعصابي! كلما أنهيت جلسة العلاج الكيماوي أزداد اشتياقًا لذلك الألم التافه الذي كان يصيبني.. لك أن تقرأ وتتصور ما العلاج الكيماوي وما أعراض سرطان الثدي وأي سرطان آخر، سواء أكانت نفسية أم بدنية.. أنصحك ألا تتصور، راجيةً من الله ألا يكتبه على أي إنسان.. لا شيء مضمون ولا شيء مستقبلي بإمكاني حسبانه أو التنبؤ به، لكن في قرارة نفسي أدرك تمام الإدراك أني أقوى من أي مرض وحبي

لحياتي أقوى من أي ألم.. سأُشفى قريبًا وأصبح أقوى وأفضل من ذي قبل».

بعدما أنهت كتابة هذا الكلام على هاتفها قامت برفعه على حسابها الشخصي على الـــfacebook..قامت من سريرها واتجهت للبلكونة لتجد «كريم»..

– صباح الخير.

– ....

رفعت صوتها:

– صباح الخير يا عم انت.

انتشلته من شروده.. نظر خلفه وتطلع إليها.. منظرها كان مثيرًا للشفقة.. نحيفة جدًّا شعرها خفيف يكاد يكون أغلبه متساقطًا..

– صباح الخير.

– انت مين؟ واسمك إيه؟ وبتعمل إيه هنا؟

قالتها بلهجة جدية مصطنعة.

– «كريم».. جيت امبارح وماشي كمان كام يوم.

– ليه؟ انت عندك إيه؟

– عندي جلطة.

– مالك يا عم؟ بتتكلم بقرف كده ليه؟ وماشي ليه بسرعة كده؟ أنا ما بصدق ألاقي حد جنبي يسليني.

- بقالك كتير هنا؟!

- سنة تقريبًا.

- عندك إيه؟

- عندي صداع **over**..

هكذا قالت ضاحكة فابتسم لها «كريم»:

- انتي «دينا».. مش كده؟

- إيه؟ الدكتور قالك عليَّ.. صح؟

- آه.. عندك قد إيه يا «دينا»؟

- أنا عندي 20 سنة، والمفروض إني داخلة سنة تانية إعلام.. أنا في الـ **AUC** على فكرة.

- لأ، أكيد هتدخلي.

- أنا هزعل أوي لو جرالي حاجة يا «كريم» انت! بس إن شاء الله هخف وهبقى كويسة.

- خايفة تموتي؟!

قالها وهو يبتسم باستخفاف بسخرية.

- يا عم بعد الشر عليَّ.

- أنا ما أقصدش.. ما بعرفش أرتب الكلام بس.

- هو أنا مش خايفة أموت حرفيًا، بس أنا خايفة لأن فيه حاجات

كتير عايزة أعيش وأعملها..مش منطقي يعني إني أخاف من الموت.. الموت مرحلة عمرية زيه زي الولادة والنضوج والبلوغ، بعد كده العجز.. الموت نهاية طبيعية بس بيبقى وحش لو ما جاش في وقته.

- ويا ترى إيه وقته المناسب بقى؟

- أنا لسه في تاني مرحلة في حياتي.. فيه حاجات كتيرة لسه ما دوقتش طعمها واستمتعت بنكهتها اللي بتتغير من موقف للتاني.

- زي إيه؟

- زي إني لسه مخلصة ثانوي.. عايزة أكمل دراسة في الكلية والمجال اللي بحبه وأجرب إحساس نجاحي كل سنة وإحساس الحب اللي بجد واللي بييجي في السن ده.. لسه عايزة أشتغل وأبقى مذيعة مشهورة والناس بتحبها، وممكن برضه أمثل.. لسه ما جربتش إحساس إني أتجوز ولحظة لما البنت بتبقى حامل وجوّه بطنها **baby** **cute** كده، بعديها أبقى أم لطفل جه من ولد بحبه وفرحتي بالطفل ده وهو بيكبر قدامي بعد كده يبقى راجل أو عروسة زي القمر، ولسه ما جربتش إحساس إني أشيل أحفادي وأبقى تيته.. لسه ما جربتش مليون إحساس!

لسه الدنيا فيها حاجات ولا إيه؟!

«كريم» مشفق عليها وفي الوقت نفسه مشفق أكثر على سذاجتها المفرطة.. مسكينة.. للأسف تظن أن الحياة جميلة وسارة وتستحق أن تحارب لأجلها.. لا تعرف شيئًا عن المصائب والكوارث النفسية ولم

تذق ما ذاقه منذ طفولته.. فلو كانت ذاقته حقًّا لسئمت الحياة واشتهت نهاية هذا العبث كما يشتهيه هو من أعماقه.. لم يعجبه في ما قالت سوى إصرارها واستماتتها للبقاء.. علّق بحنان:

- بجد من قلبي ربنا يشفيكي ويحققلك كل اللي بتحلمي بيه..

.i wish you a speedy recovery

- ميرسي جدًّا يا «كريم».

- وبمناسبة المعرفة الحلوة دي وعيونك الجميلة هسمّعك حاجة حلوة أوي.. بس معاكي موبايل فيه نت الأول؟

- آه.. اتفضل.

- فتح الـyoutube وكتب: «هبة طوجي لما بيفضى المسرح».. ركزي في كلام الأغنية وهتعجبك بجد.

لحظات وعلا صوت «هبة» المحبوب لقلبه بالغناء:

«شو نفع المدن إذا فضيت من كل الناس اللي فيها وشو نفع الحزن إذا بعينينا ما في دمعة نبكيها.. وشو نفع اللي بتحب إذا بتشتاقله بالسر وما فيك تحكيه.. وشو ذنب الأيام إذا أعمارها أطول من أعمار الناس؟!».

ابتسم «كريم» بعد انتهاء الأغنية:

- «هبة» كل كلامها جميل.. كلام مش أي حد يعرف يكتبه.

- آه الأغنية حلوة فعلًا، بس فيه جملة ما عجبتنيش بتقول «شو

حلوة الأيام تخلص وما ينقص ولا حدا من الناس».

– عندك حق.. حاجة رحمة فعلًا.

– ازاي يعني ما ينقصش ولا حد من الناس؟ طيب الناس اللي بنكرههم واللي بيبوظوا حياتنا هيفضلوا قاعدين لينا كده؟ مش طريقة يعني.

نظر لها «كريم» وقد دخلت قلبه سريعًا بعفويتها وبراءتها.. التقطت مرآة روحه صورة لها بسرعة على الرغم من أنها كُسرت مع الوقت وأصبحت غير قادرة على رؤية أي شيء.

– مالك؟ ساكت ليه؟

– انتي دخلتي قلبي بسرعة يا «دينا».. وده قليل لما بيحصل.

– ده شرف ليَّ يا ريس.

– إيه ريس دي؟ أنا دكتور أسنان على فكرة.

– بجد؟!

– آه بجد.

– خلاص، ده شرف ليَّ بجد يا دكتور «كريم».

– ممكن خدمة بقى؟

– إيه؟!

– تعرفي حد هنا يرضى يجيبلي سجاير؟

– أنا معايا سجاير.

بتعجب شديد:

– انتي بتشربي سجاير؟!

– أنا في الــAUC يا عم مش في جامعة القاهرة.. خليك راقي كده وما تبقاش جاهل.

– من إمتى بقى؟

– من أيام الــinternational school مع أصحابي.

– ممم.. طيب هاتي سيجارة بقى.

– هي مش هتعجبك بس هجيبلك.

جاءته بسجائر رفيعة جدًّا وطويلة بالنعناع.

– سجاير حريمي؟!

– اللي موجود.

– ماشي.. هاتي ولاعة بقى.

– اتفضل.

نظر إلى الولاعة بإعجاب شديد.. ولاعة غالية ماركة zippo، سعرها لا يقل عن 400 جنيه.. ذكّرته بعطر كان يمتلكه يحمل الاسم نفسه.

– ولاعة zippo كمان.. ده انتي بنت ناس بجد.

– عجباك الولاعة؟

– جدًّا.

– خلاص.. الولاعة ليك.

– بجد؟

– آه يا عم خدها.. مفيش حاجة.

– كان نفسي ما أبقاش بجح كده بس بجد الولاعة عجباني.. أنا قبلت الهدية.

نادت الممرضة بصوت مرتفع من داخل الغرفة:

– «دينا».. يلا، المعاد جه.

– همشي أنا بقى دلوقتي.. **bye bye**.

***

رنّ هاتف «مريم»:

– ألو.. عاملة إيه يا ماما؟

– أنا تمام.. عاملة إيه انتي يا حبيبتي؟ طمنيني عليكي.

– أنا حلوة الحمد لله.

– بتاكلي كويس؟

– ههههه.. آه، طول مانا قاعدة باكل.

– طيب قولتي إيه على «طارق»؟

- «طارق» مين؟!

- يا بنتي «طارق» اللي كلمتك عليه، ابن مدام «إيمان».

- ماما.. انتي مش بتزهقي بقى؟!

- لأ مش بزهق، وهتقابليه يعني هتقابليه.. انتي ما شفتيهوش عشان تحكمي عليه هو مش عِند وخلاص.

- لا حول الله يا رب.. أتجوز واحد لا أعرفه ولا يعرفني؟

- طيب مانا بقولك قابليه وساعتها هتعرفوا بعض.

- يا ماما.. مليون مرة قلتلك أنا مش هتجوز بالطريقة دي.

- أنا تعبت معاكي بجد، بس برضه هتقابليه.

أخذ والد «مريم» الهاتف من أمها المزعجة:

- ازيك يا حبيبة بابا.

- يا بابا.. واحشني أوي بجد.

- انتي أكتر يا «ريما».. سيبك من أمك خالص ولا تسألي فيها.

- ما حدش فاهمني غيرك انت وبس.

- اوعي تتجوزي غير اللي تحبيه وترتاحيله، وقريب هييجي.. شغل الصالونات ده اتلغى.

- أيوه كده قُلّها.

- مانا بقُلّها.. بس انت عارفها ما عندهاش..

– ما عندهاش إيه؟

– ما عندهاش مخ يا بنتي.. لازم أوضح يعني؟!

– هههههههه.. بابا، الكتاب اللي اديتهوني آخر مرة بجد حلو أوي.

– عيب يا بت تراجعي ورا أبوكي.. أنا مش هديكي أي حاجة تقريها.

– بس النهاية وحشة.

– نبقى نتناقش في الموضوع ده.. هترجعي البيت إمتى؟

– كام يوم وهاجي.. انت وحشتني بجد انت وماما أوي.

– تيجي بالسلامة يا حبيبة بابا.

– بابا.. الجرس بيرن، شكلها «نرمين».. هقفل دلوقتي.

– ماشي، سلميلي عليها.. مع ألف سلامة.

دخلت «نرمين» وفي يدها عدة أكياس:

– إيه ده كله يا بنتي؟

– معلش، كنت جوّه.

– طيب يلا.. أنا جبت أكل.

– حبيبتي.. كنت واقعة من الجوع.

أعدتا الطاولة ووضعت «مريم» سلطة خضراء وعصير أناناس:

– إيه ده يا «نرمين»؟ ده مش spicy.

– ما عندوش.. قالي لسّه نص ساعة لحد ما يجهز، خدت ده وخلاص.

– يلا زي بعضه.

– رُحتي لـــ«كريم»؟

تبدلت ملامحها:

– لأ لسه.

– وحساب المستشفى؟

– هو بقى لما يقوم يبقى يدفعه، أنا سبت 200 جنيه اللي كانوا في الشنطة ساعتها وهو أكيد شرحلهم.

– أنا مش برتاح للراجل ده على فكرة.

التقطت «مريم» الكلمة وكأنها تنتظرها:

– ازاي بقى مش بترتاحي؟

– ما اعرفش كده تحسيه مش مظبوط.. شكله تحسي إنه راجل حشاش مش دكتور، وأسلوبه بارد كده وأوقات بحس إنه مش طبيعي.

– مش طبيعي ازاي؟

– كتير يكون طالع جنبي وأمسي عليه ويرد بعدها بشوية ويقولي: إيه؟! بصي، هو في المجمل كده مش مريح.

- تعرفي إنه شتمني لما كنت فوق عنده؟

- إيه ده؟ بجد؟!

- هو مش شتمني شتمني يعني، بس أحرجني جامد.. شفت صورة ولد صغير حاطتها جنب الكنبة بسأله: ده مين؟ لقيته زعقلي جامد وقالي: إيه التطفل ده؟ وإن أنا بحشر نفسي في اللي ماليش فيه.

- ده مجنون بجد.. وتفتكري مين الولد ده؟

- مش عارفة، هو مش متجوز أصلًا، فما اعتقدش إنه ابنه.

- فكك منه.. مالناش دعوة بيه.

- على رأيك.

قامت «مريم» ووضعت باقي الطعام في الثلاجة.. كان في نفسها رغبة ملحة أن تخبر «نرمين» بما وجدته في شقته وعن الشرائط والمسدس وكارت الدكتور المقتول، لكن شيئًا ما منعها من البوح لها.. دخلت غرفتها بعدما أخبرت «نرمين» أنها ستنام ثلاث ساعات.. أغلقت بالمفتاح ووضعت الشريط الثاني..

***

الشريط الثاني

– ازيك يا «كريم»؟

– مش كويس.

– ليه؟

– الأدوية اللي اديتهالي دي ساعدتني على النوم شوية، بس الكوابيس مستمرة.

– طبيعي الأدوية مش أكتر من منوم مالهاش علاقة بالكوابيس.

– وبعدين طيب؟

– ما تفكروش في الكوابيس وشيلها من دماغك وركز معايا.. إحنا آخر مرة قلتلي هتحكيلي باقي اللي حصل مش متذكر كان إيه بالظبط.

- 1991/5/9.

- أيوه هو التاريخ ده، ليلة امتحان الفيزيا بتاعك.

نظر في الأرض لدقائق كأنه يحضِّر ما سيقوله.. لم يلمع في ذاكرته الحدث بالتفصيل، لكنه حاول أن يسرده..ضربات قلبه زادت.. أشعل سيجارة وزفر سحابة من الدخان من أنفه ثم بدأ..

***

1991/5/9

«كريم» بلغ من العمر ثماني عشرة سنة.. ليلة امتحان الفيزياء.. الساعة الثالثة صباحًا.. ما زال مستيقظًا يراجع ما تبقى له من هذه المادة شديدة السخافة، ذلك حين زاد توتره عند سماعه صوت شجار قادم من الصالة.. لم يكن الأمر جديدًا عليه، لكنه كان تلقائيًّا متوترًا من الامتحان.

«جسار» مُستلقٍ على الكنبة كعادته مشعلًا سيجارة وبجانبه زجاجات الخمر الملعونة التي أدمنها.. الزمن تكفّل بتغيير ملامحه جذريًّا.. ذبل وجهه وتشققت جبهته وظهرت على جسده علامات الانكماش السخيفة التي تغزو الجسم في هذه الفترة.. عيناه شديدتا الاحمرار.. أصبح شبحًا مَن يراه يشعر بأنه في العقد السادس من العمر وليس الرابع.. «نجوى» أيضًا لم تعد «نجوى» الجميلة المغرية.. كثرة

الأحزان والهموم والمشاكل قادرة على تغيير ملامح أي إنسان أكثر من الزمن..كرهت الحياة بسبب «جسار».. المهدئات ومضادات الاكتئاب أصبحت جرعة أساسية تتعاطاها يوميًّا..

أهلكت أعصابها ودمرت خلاياها.. خرجت من غرفتها وهي تغلي وفي يدها كيس به مسحوق أبيض.. وجَّهت الكلام لـــ«جسار» المتبلد:

– إيه ده؟

لم ينظر إليها؛ فقد كان ثملًا من الكحول.

– رد عليَّ.. إيه ده ؟!

– زي ما انتي شايفة.. هيروين.

– وصلت للبودرة كمان؟ مش كفاية الخمرة والحشيش والهباب؟ بتجيب الفلوس دي منين؟

– من عند أمك.

– لا مش من عند أمي..انت بقيت تسرقني كمان يا عرة الرجالة.. وديني، وديني كمان مرة لأفضحك في كل حتة قدام الناس وقدام ابنك وهقولهم إنك شمام وحشاش وخمورجي وبقيت حرامي كمان.. بس مش هكتفي بكده، أنا جبت آخري منك خلاص، أنا هرفع عليك قضية طلاق وهكسبها من أول جلسة لما يلاقوا آثار المخدرات في دمك ويعرفوا إنك مدمن نتن.. أنا هرميك في الشارع زي الكلب يا شوارعي انت..

كراهية «جسار» لـ«نجوى» أصبحت مخيفة ومرعبة، وأصبح من الصعب عليه وعلى نفسه أن يُكنَّ كراهية أكثر من هذا.. كل شياطين الدنيا استحوذوا عليه عند سماعه هذا الكلام.. قام بسرعة من على الكنبة ولم يحاول التفاهم أو التهديد أو حتى الرد والتعليق على كلامها.. ضربها في كل منطقة في جسمها.. كسر أسنانها ويديها وقدميها.. وكانت قوة ضربه تزيد مع زيادة صراخها.. هرع «كريم» إليها يحاول أن يخلصها من هذا الملعون الذي قُدِّر له أن يكون والده، لكنه قابله بضربة في وجهه ألقته أرضًا.. جرى «جسار» بسرعة للمطبخ وأحضر سكينًا ثم اتجه نحوها:

– أنا هقطعك حتت.

– يا ابن الكلب.. أنا بكرهك، بكرهك..

ضربته بقوة أعلى فخذه.. وقع على الأرض، أخذت منه السكين بسرعة وقامت بصعوبة بالغة تحاول الهرب منه، لكنه جرى وراءها حتى وصلا إلى البلكونة.. دفعها «جسار» من وجهها بيديه إلى الأمام..طارت من البلكونة، لكن أحدًا لم يسمع صراخها وهي تسقط.. لا، لم تصرخ من الأصل.. استغرق الأمر ثانيتين اثنتين ووقعت جثة هامدة..

توقف الزمن لدقائق..

«جسار» كأنه كان غائبًا عن الوعي ثم أفاق.. نظر إلى الجثة ثم أغلق باب البلكونة والستائر واستلقى على أرضية الصالة لدقائق.. جسده كله يرتعش بشدة.. وعلى الرغم من هذا فهو ثابت في مكانه

لا يتحرك.. بحر من الأدرينالين ضُخَّ في دمه.. لم يستوعب ما يحدث.. هل ألقاها فعلًا؟! لا، لم يحدث.. أيقن أنه يحلم حلمًا مزعجًا.. قام من مكانه، تلفَّت حوله ثم دخل غرفتها:

- «نجوى»!

لم يجدها بالداخل.. دخل المطبخ والحمام وهو ينادي، لكن لا رد.. دخل غرفة «كريم» ولم يجده أيضًا!

في الأسفل، «كريم» بجوار جثة أمه والدماء رفيقهما الثالث.. طلب الإسعاف، مع علمه التام بوفاتها، لكنه حاول أن يكذِّب نفسه.. بكى بمرارة كطفل وحاول إيقاظها:

- ماما.. ردي عليَّ.. عشان خاطري ما تموتيش.. ردي عليَّ.. أنا مليش حد غيرك.. ليه كده؟ خدها مني ليه؟ أنا حياتي ناقصة سواد؟

وضع رأسه على صدرها ومرت ساعة تقريبًا حتى وصلت سيارة الإسعاف..

نزلوا وبحوزتهم سرير نقال ومعهم شخص لا يبدو عليه أنه طبيب.. أبعد «كريم» وكشف عليها، لكنه لم يجد أي نبض..

- ما حدش يحرَّك حاجة.. دي ماتت، اطلبوا الشرطة حالًا.

ووضع عليها ورقة جرائد..

صرخ «كريم» بأعلى صوته:

- آااه.

دوّى صوته في المنطقة كلها، أيقظ صوته النائمين، وقطع أحباله الصوتية.

دقائق وفقد وعيه.

***

7 صباحًا

ضابط شرطة ومعه مجموعة من معاونيه وبعض رجال المعمل الجنائي يعاينون الجثة وسط حضور جماهيري لا تشاهده سوى في مباراة نهائي كأس عالم.. وبعض أصوات:

– أنا سمعت إنها كانت في مشاكل مع جوزها.

– أكيد هو اللي رماها أصلًا.

– لا يا جماعة، فاكرين فيلم النوم في العسل؟ أكيد الراجل ده لا مؤاخذة، فهي قالتله كلمتين حرقوه راح رماها من فوق، أختي قالتلي حصل كده مع جارهم.

– أنا حاسة كده يا «أم محمد».

وصل إلى سمع الضابط بعض هذه الأقاويل المستفزة.. صرخ فيهم:

– يلا يا مرة منك ليها.. المولد انفض.

قام رجال الإسعاف بنقل الجثة إلى المشرحة، ليقوم رجال المعمل الجنائي بتشريحها ومعرفة سبب الوفاة.

صعد الضابط إلى شقة القتيلة، وجد «جسار» جالسًا على كرسي في حالة رثّة وشاب في عمر الـ18 يجلس بعيدًا مغمضًا عينيه، ضامًّا يديه وقدميه إلى رأسه كأنما يحتمي بها.

– البقية في حياتك يا أستاذ «جسار».

– ....

– حصل إيه بقى؟

– مش عارف ازاي حصل كده، أنا كنت في أوضتي نايم وفجأة صحيت على صوت صراخ في الشارع ولمة وعربيات إسعاف، نزلت لقيت المنظر ده.

– يعني انت شايف إنها انتحرت؟

– ما اعتقدش إن حد ممكن يكون قتلها، هيقتلها ليه أصلًا؟ وبعدين «نجوى» ما كانتش مظبوطة من فترة، بتاخد أدوية كتير مضادة للاكتئاب والتوتر وكانت على طول قلقانة كده.

– كان فيه مشاكل بينكم؟

– آه طبيعي، زي أي اتنين متجوزين.

– امبارح تحديدًا حصل بينكم خناق أو شديتوا مع بعض؟

توتر «جسار»، وزاغت عيناه، أخفض رأسه لأسفل قليلًا، رأى

«كريم» ينظر له نظرة لم يفهمها، زادت من قلقه وتوتره أكثر.

- أنا هكون صريح معاك، امبارح أنا و«نجوى» اتخانقنا جامد أوي بس ده مش جديد.. طول عمرنا مش على وفاق، ومديت إيدي عليها امبارح جامد.

- إيه السبب بقى؟

- سبب شخصي.

- لأ مفيش حاجة اسمها سبب شخصي، إحنا في تحقيق.

نظر الضابط له بحدة ثم أخرج علبة سجائر من جيبه وأشعل سيجارة ثم ناوله واحدة:

- تدخن؟

أخذ «جسار» السيجارة ثم قال:

- أنا و«نجوى» ما كُناش بنحب بعض، امبارح شتمتني وقلت أدبها وعايرتني إني مش قادر أكفي مصاريف البيت وإن هي اللي بتصرف وكلام زي كده، حرقت دمي.. ضربتها وهي كمان مدت إيديها عليَّ.

- عظيم، الكلام ده كان الساعة كام؟

- مش فاكر بالظبط، بس كانت حوالي واحدة كده.

- وبعدين حصل إيه؟

- أنا سيبتها ودخلت أنام، بس هي فضلت في الصالة وما

دخلتش الأوضة.. بس.. وصحيت لقيت اللي حصل ده.

- «كريم» كان صاحي؟

- آه.. «كريم» عنده كمان ساعة ونص امتحان فيريا.. هو في ثانوية عامة.

- عظيم، حضرتك هتقوم معانا معزز مكرم نروح القسم لحد ما نشوف تقرير المعمل الجنائي وبعد كده يحلها حلال.

قام الضابط بعد أن أمر رجاله بالتحفظ عليه واتجه إلى «كريم».

- «كريم».. «كريم».

نظر إليه «كريم» بعينين ذبلتا من البكاء ولم يرد.

- أنا عارف ومقدر حالتك، حتى مش هاخد منك أي أسئلة، قوم اغسل وشك واشرب فنجان قهوة، وصلي لربنا كده عشان يكون معاك، روح امتحانك، وما تفكرش في أي حاجة لمده الـــ3 ساعات بتوع الامتحان، اعتبر نفسك كنت بتحلم وإن انت ما تعرفش الناس دي أصلًا، وإحنا بعد الامتحان هناخد منك كلمتين وهتروح.. تمام؟

- ماشي.

***

8.30 صباحًا.. قبل الامتحان بـــ30 دقيقة

أخذ «كريم» حمامًا بمياه باردة، أنعشت جسده وبرَّدت ما تبقى من دمه، شرب كوب قهوة كاملًا.

حاول بقدر الإمكان أن يتناسى ما حدث منذ قليل. لبس ونزل في طريقه إلى المدرسة التي يمتحن بها. كان يمشي كأنه مخدر، وقد أخذ قرصًا من أقراص أمه المهدئة، وصل إلى اللجنة في تمام التاسعة، بدأ المراقبون في توزيع الورق مع بعض الكلمات البالية التي ليست لها أهمية مطلقًا:

– ركزوا.. الفيزيا محتاجة تركيز وإن شاء الله تجيبوا درجات كويسة.

تسلَّم «كريم» ورقته، ورقة صفراء طويلة مستفزة بها كلام بالٍ ليس له أهمية مطلقًا..

ما هذا العبث؟ هذه الورقة السمجة هي التي تحدد مستقبل إنسان.

مرت ساعة كاملة وهو ينظر إلى الورقة، لم يكتب ولو حرفًا واحدًا، كأنه لا يدرك أنه في امتحان من الأساس.

لاحظ أحد المراقبين هذا ومال عليه:

- يابني انت من الأول قاعد ساكت ما كتبتش حرف حتى، اكتب أي حاجة الله يرضى عليك.

نظر «كريم» إلى المراقب وإلى الورقة باستخفاف ثم بدأ في الحل.

**

11.30

قبل موعد تسليم ورقة الإجابة بنصف ساعة، أنهى «كريم» حل السؤال الرابع؛ حيث كان مقررًا حل 4 أسئلة من أصل 5، نظر إلى الورقة نظرة أخيرة ثم قام بتسليمها.

- يابني لسّه فاضل نص ساعة وانت ضيَّعت ساعة في الأول.

لم يُجِب، ترك الورقة وسلك طريقه إلى الخارج.

* * *

في الخارج، أمام المدرسة، كانت توجد سيارة شرطة بيضاء بها سائق وضابط متغطرس وعسكري.. تقدم الضابط:

- انت «كريم»؟

- آه.

- اتفضل معانا.

ركب «كريم» بالخلف، نصف ساعة وكانوا في القسم، دخل مكتب الضابط الذي كان في شقتهم منذ ساعات، رأى والده بالداخل، لم يحاول أن ينظر إليه، تنهَّد الضابط ثم أشعل سيجارة.

– ها.. عملت إيه في الامتحان يا بطل؟

– تمام.

– طيب الحمد لله.

قام من كرسيه وجلس بمحاذاة «كريم»:

– تحب تشرب حاجة؟

– لا.

– ماشي، حصل إيه بقى إمبارح؟

– ممكن تسيبني لوحدي 5 دقايق؟

– آااااه.. ماشي.

وضع «كريم» رأسه على المكتب ووجهه إلى أسفل في وضع فتاة تبكي في حصة دراسات لأن المدرس أحرجها، دارت في ذهنه حسابات كثيرة، خمس دقائق من التفكير الشاق، لم يبذل هذا الجهد في التفكير وهو يحل امتحان الفيزياء، صورة أمه وهي تُلقى كانت كنمل يجري في دماغه، مشهد حُفر في ذاكرته بقلم من معدن حاد، رفع رأسه، نظر لوالده نظرة غير مفهومة، ابتسم «كريم» لوالده، هذه الابتسامة أقلقت الوالد أكثر..

- انت ناوي على إيه؟! أبوس إيدك ما تفضحنيش.

قالها «جسار» بعينيه ونظر إلى «كريم» نظرة توسل، لكن «كريم» استمر في الابتسام.

غزا القلق ملامح «جسار» بشدة.

دقائق ودخل الضابط:

- ممكن تستنى برّه يا أستاذ «جسار»؟

- حاضر.

قام «جسار» وهو ينظر إلى «كريم» نظرة توسل واستعطاف أخيرة، لمحها الضابط، لكن «كريم» لم يلتفت إليه.

- ها يا بطل.. حصل إيه؟

- اتخانقوا زي كل يوم، لمدة ساعة أو أقل، شيء مش جديد يعني، حتى أنا ما حاولتش أطلع من الأوضة وأسيب المذاكرة عشان أشوف إيه اللي بيحصل..

بعد كده الصوت راح والمولد انفض، أبويا دخل نام وأمي فضلت قاعدة في الصالة، بعديها بنص ساعة قمت المطبخ أعمل كوباية شاي، لقيت ماما واقفة على سور البلكونة، روحت جريت عليها بس ما لحقتش، كانت رمت نفسها خلاص.

قالها والدموع في عينيه.

- يعني مش والدك اللي رماها؟

– أبويا كان نايم ساعتها، ده عرف إنها وقعت بعديها بساعة تقريبًا من صوت الصراخ وعربيات الإسعاف.

– عظيم، بس لأول مرة تقرير المعمل الجنائي طلع في 4 ساعات بس وفيه كام حاجة مبهمة تأكد إنه يا إما انت كداب يا إما أبوك كداب.

انحنى «كريم» للأمام وأغلق يديه على بعضهما (شبَّكهما) كأنه أحس بأول ضربة وأعطى جسمه تلقائيًّا وضعية الدفاع.

– يا «محمد».. دخَّل الأستاذ اللي برَّه.

دخل «جسار» وكاد يغشى عليه من التوتر.

– اقعد يا أستاذ.. بصوا بقى يا باشوات تقرير المعمل الجنائي قال «إن الجثة وقعت على ضهرها مش على بطنها، ده معناه إنها اترمت مش رمت نفسها، تاني حاجة كان فيه آثار ضرب واعتداء في جسمها كله، الحاجة الوحيدة اللي في صالحك إنهم لقوا في دمها نسبة كبيرة من مواد (كلوميبرامين) و(تيانبتين)، ودي مواد مضادة للاكتئاب، والإفراط فيها ممكن يؤدي لحالات غريبة زي حالة المرحومة».. ردكم إيه بقى؟

– حضرتك أنا ما كدبتش عليك بالنسبة لآثار الضرب اللي في جسمها، أنا قلت الصبح إني امبارح اتخانقت جامد معاها ومديت إيدي عليها وهي كمان على فكرة، أما بالنسبة لأنها وقعت على ضهرها مش بطنها دي حاجة أنا ما عنديش تفسير ليها.

– وانت يا «كريم».. عندك تفسير لده؟

قال بأسى:

– يمكن وقعت بوضع عمودي، فلما وصلت للأرض ممكن تكون دارت.

– عظيم، ماشي يا باشوات، تقدروا تروحوا، بس ما ينفعش تسيبوا المكان اللي أنتم قاعدين فيه، وأنا هعمل تحريات وأسبوع كده وهاستدعيكم تاني.

***

وصلا المترل، وطوال الطريق لم ينطق أي منهما بكلمة، كان مترلهما عادة كئيبًا صامتًا بلا حياة، لكنه لم يكن كئيبًا مثلما كان في هذا اليوم، كان معتمًا على الرغم من وجود ضياء، وكأنه حزين لوفاة صاحبته.

ألقى «جسار» بنفسه على الكنبة وأطلق آهة عالية.

دخل «كريم» البلكونة ونظر إلى أسفل، موضع صوت أمه، وما زالت دماؤها موجودة سائلة لم تجف بعدُ، ترقرقت في عينه دمعة لم تكتفِ بها عينه فأطلقت سيلًا آخرَ، بلل رموشه وحرف خده.

أنا عملت كده ليه؟ ليه ما قلتش إن هو اللي قتلها؟ كان لازم يتعاقب ويموت زيها.

هو مش أحسن منها، بالعكس.. دي هي اللي كانت المفروض تعيش وهو اللي كان لازم يموت.

يستحيل هتسامحني وهي عارفة إني عارف مين قتلها وساكت.. ليه ما قلتش الحقيقة؟ ليه؟

تكرر صدى السؤال في ذاكرته كثيرًا، لكنه لم يجد إجابة سوى أن هذا الرجل مهما كان سيئًا فهو أبوه الذي أنجبه، إذا اعترف عليه وأُعدم فكيف سيعيش بلا أب وبلا أم وبلا أقارب؟

ليه كده يا رب؟ ليه بيحصلي كل ده؟ أنا عملت إيه وحش في حياتي عشان أتعاقب كده كل يوم؟ أنا من يوم ما جيت الدنيا دي ما شوفتش يوم حلو ولا حتى يوم معقول، كل أيامي كانت سودا..وبكى بكاءً مُرًّا.

تألّم «جسار» لموتها على الرغم من كراهيته الشديدة لها، ذلك الألم الذي ينهش في ضمير أي قاتل مهما حاول إخفاءه.

حاول «جسار» الهروب على الرغم من أن أحدًا لم يكن يطارده، لكن شبح «نجوى» لم يجعله يعيش يومًا مرتاح البال.

تراءت له كثيرًا في غفوته وهي تحاول قتله، فيقوم مفزوعًا منقطع الأنفاس.. وبدأت الكوابيس تنهش فيه، كان مرات كثيرة يراها تحاول قتله وهو مستيقظ، تداخل الواقع والخيال، الحقيقة والحلم، كان لا يدري أهو مستيقظ أم نائم، عاش ميتًا، تمنّى الموت حقًّا.. لو كان أُعدم لكان أكثر راحة مما هو فيه الآن، هو الآن يُعدم كل يوم بلا رأفة، ومات «جسار» يوم موت زوجته.

**

مرت ساعتان ونصف الساعة، دكتور «مالك» في مواجهة «كريم»:

– وبعد كده إيه اللي حصل؟

– المحضر اتقفل، الظابط عمل تحريات وما وصلش لأي دليل، واتكتب الموضوع على إنه انتحار وخلاص.

– من كلامك انت أبوك ده كان غريب أصلًا بالنسبة لك، ليه ما اعترفتش عليه؟

– صدقني مش عارف، مفيش سبب غير إنه أبويا.

– أنا مش مقتنع، إزاي بتقول أبوك؟ هو يبقى أبوك عشان جابك؟ هي دي الأبوة؟ هو عملك إيه طول حياته؟ ده حتى أبسط حاجة إنه يصرف عليك ما كانش بيقوم بيها.. طول عمره معيشك انت ووالدتك في عذاب، انت كان المفروض تبلغ عنه، والموضوع لسه في إيدك لحد دلوقتي.

– في إيدي إيه بس؟ ده عدى أكتر من عشرين سنة.

قاطعه «مالك»:

– أنا متأكد إن الكوابيس اللي انت بتشوفها دي بتشوف فيها أمك وهي غضبانة مش راضية عليك لأنك فرطت في حقها، صح ولا لأ؟

– بعد الحادثة بأيام، أبويا ساب البيت، ولحد النهارده أنا ما اعرفش عنه أي حاجة.

تنهد «مالك» وزفر نفسًا طويلًا بتعب:

– وبعد كده حصل إيه؟

– جبت مجموع كويس.. لحقت طب أسنان القاهرة بالعافية.

– وكنت بتصرف إزاي؟

– أمي كانت شايلة قرشين، وبدأت أشتغل من قبل بداية الدراسة بشهر.

– وبعدين؟

– «دارين».

– إيه؟!

– «دارين بسّام».

– ماشي يا "كريم".

تبادلا ابتسامة واتفقا على موعد الجلسة المقبلة.

***

«مريم» لا تزال مستلقيةً على السرير في حالة دهشة مما تسمع.. مرت حوالي ساعتين ونصف الساعة.. صوت «نرمين» تدق على الباب انتشلها من شرودها..

– «مريم».

– أيوه يا «نرمين»؟

فتحت الباب بعد أنا خبَّأت الكاسيت بسرعة.

- ما تيجي نخرج.

- هنروح فين؟

- أي كافيه.. أنا مش طايقة أقعد في البيت.

- ولا أنا.. ماشي.. البسي يلّا..

***

«كريم» يجلس على صخرة.. الجو مشمس وجميل وشديد اللطف.. أمامه مباشرة البحر في أوج جماله وروعته.. الأمواج عالية.. صوت اصطدامها وعراكها مع الصخور الصلبة وإطاحتها بالرمال الضعيفة كان يثير في نفسه شيئًا لذيذًا.. قام من على الصخرة واستلقى على الرمال الشاطئية.. لا يوجد أحد غيره على الشاطئ..

استغرب جدًّا.. الوقت ليس مبكرًا لهذه الدرجة.. أين الناس؟ لمح من بعيد فتاة في سنه نفسها تقريبًا.. آية من الجمال.. شعرها بني طويل مسترسل حتى أسفل ظهرها.. تشبه **cameron diaz** الممثلة الجميلة.. وفي يدها زجاجة لم يتبينها جيدًا.. جاءت وجلست بجانبه:

- قاعد لوحدك ليه؟!

- أنا جيت وما لقتش أي حد على البلاج.

- طيب كويس إني لقيتك يا «كريم» عشان تسليني.

– «كريم»؟! انتي عارفاني بقى!

– أعرفك كويس جدًّا، ده إحنا عِشرة سنين يا راجل.

ثم صبت له من الزجاجة التي معها بعض السائل في كوب بلاستيكي:

– اشرب.

– إيه ده؟

– ده wine.. حلو، جربه.

– نجربه..

كوب وراء الآخر والفتاة لم تشرب نقطة وهي تحاول إلهاء «كريم» بالحديث عن أي شيء.. ألم رهيب في معدته.. سكاكين تنهش في أمعائه..

– الزفت ده فيه إيه؟

– فيه سم.. ألف هنا وشفا.

أطلق آهة عالية وقام مفزوعًا كالعادة من نومه وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه.. رن الجرس وجاءته الممرضة بعد دقيقتين:

– صباح الخير يا دكتور.

– صباح النور.. أنا همشي إمتى بقى؟ أنا حاسس إني بقيت كويس ومفياش أي حاجة.

– صدقني دي حاجة مش في إيدي.. الدكتور هيجيلك كمان

شوية ويقولك على اللي هيحصل.. الفطار هيجيلك حالًا.. افطر وممكن تقف في البلكونة شوية، بس ما تبذلش أي مجهود عشان ضغطك مش متظبط.. أنا مستنية لما تفطر عشان أقيسلك الضغط..

تناول الإفطار وقام بصعوبة.. غسل وجهه وأسنانه.. دقّق النظر في المرآة..

التجاعيد غزت وجهه ببجاحة مفرطة وشعر ذقنه نصفه أصبح أبيض.. أحس أنه كبر وأصبح عاجزًا.. زفر نفسًا طويلًا بتأفف ثم خرج للبلكونة وكالعادة «دينا» جالسة.. ما لفت نظره الصوت المنبعث من هاتفها.. «كل أصحابي فلوا» صفوة أغاني «هبة» وأغنيته المفضلة لها..

– الله الله.. أيوه كده.. بقينا نسمع «هبة» أهو.

– أنا بجد ممتنة ليك إنك قُلتلي عليها.. مش عارفة أقفلها.

– عارفة إني كان نفسي أتجوز هبة طوجي بس ما حصلش نصيب للأسف؟

– ليه بس؟

– الحاج طوجي اختلف معايا على المهر وكده.

ضحكت من قلبها وضحك على صوت ضحكتها..صورتها تخللت وذابت في مرآة روحه.. أحبها كابنته..

***

- «دينا».

- أيوه.

- أنا بحبك أوي.

- oooooooh.. بس انت قد بابا.

- بحبك زي بنتي.

- أنا بهزر.. أنا بجد كمان حبيتك أوي يا «كريم».. فيه ناس كده بتدخل القلب من أول مرة تتكلم معاهم حتى لو ما تعرفش أي حاجة عنهم.. حتى لو كانوا وحشين.. دي مَلَكة ربنا مش بيديها غير للغاليين عنده بس.

- وأنا بصراحة ربنا بيحبني جدًّا.

- «كريم».. أنا كل يوم خوفي من إني هيجرالي حاجة بيزيد.. بصلي ليل ونهار إني أخف وما يجراليش حاجة.

- لو عرفتي قد إيه الدنيا تافهة وحقيرة صدقيني هتتمني الموت.

- انت نِفسك تموت؟

- من زمان.

- وأنا عايزة ألفّ العالم.

- هتروحي فين بقى يا «دينا» هانم؟

- هروح إيطاليا آكل هناك بيتزا وباستا وأيس كريم، بعدها بيومين أطلع على أسبانيا أشتري تاج وورد وفساتين مشجّرة أفضل

أتمشى بيها هناك في الشوارع الواسعة النضيفة، وبالليل كده أخش ديسكو وأسهر مع ولد أمور كده، بعد القعدة الحلوة دي بقى هاطلع على اليونان أسمع تاريخها المبهر وأشوف الأماكن الأثرية اللي كلها سحر وأصالة، وهأجّر مركب صغير كده ألفّ بيه في البحر لحد ما ألاقي جزيرة صغيرة كده أقعدلي يومين فيها أستجم كده واتأمل، وممكن أكتب حاجة حلوة وآكل من شجر الجزيرة دي أجمل أنواع الفاكهة.. بعدها أروح فرنسا.. مهما أوصفلك بحب اللغة الفرنسية قد إيه مش هعرف أوصف **j aime ca**.. أتمشى في شوارع فرنسا الخرافية وأستمتع بمنظر التلج وهو مغطي كل حاجة وهشوف أرياف فرنسا وآخد **selfie** مع العواجيز وأتكلم معاهم وآخد خبرتهم في الحياة وأشتري من هناك أجمل عطور أصلية في الدنيا.. هجيب لنفسي **carolina herrera** وده أجمل بيرفيوم حريمي ممكن تشمه وهجيبلك معايا علبة **chrome azzaro summer** هتعجبك أوي.. ولو الفلوس اتبقى منها شوية بقى هبقى أروح هولندا أجيب من هناك أجمل بوكيه ورد أديه للراجل اللي هيبقى حبيبي...

....

ابتسم «كريم» عندما أنهت كلامها وهي مرة واحدة أحست برغبة شديدة في البكاء لعلمها التام أن مرضها سيقضي عليها خلال أيام ولن تتحقق أي أمنية من أمانيها.. ضمّها «كريم» لحضنه وقبَّلها على جبهتها.. كان حضنًا دافئًا مفعمًا بالأحاسيس الراقية النظيفة..

«مريم» و«نرمين» بالسيارة أسفل المترل:

– ها.. هنروح أنهي كافيه؟

– ما تيجي نروح «فيروز».. هادي ودمه خفيف.

– حلو «فيروز».. استني كده.. لأ حلو حلو.

لم يكن بعيدًا عن مترلهما.. استغرق المشوار نصف ساعة حتى وصلتا.. لم تجد «مريم» مكانًا تركن فيه السيارة فركنتها صفًّا ثانيًا.. صعدتا للدور الثاني واختارت «نرمين» مكانًا في آخر الكافيه بعيدًا عن صداع الناس والتلفاز.. جاءهما شاب وسيم يلبس قميصًا وبنطالًا كلاهما أسود:

– مساء الخير يا أفندم.. تشربوا إيه؟

«مريم»: أنا عايزة أيس كريم شوكولاتة بس.

«نرمين»: هات عصير فراولة وشيشة فانيليا.

– حاجة تانية؟

«مريم»: ميرسي.

– يا «مريم».

– إيه يا بنتي؟

– عارفة «حازم»؟

– «حازم» مين؟

– يا بت «حازم» اللي في تالتة معانا.

– اللي بتقفي معاه كتير ده؟

– آااه هو ده.

– ممم.. ماله؟

– بيحبني.

– الله الله.. من إمتى؟

– مش من كتير يعني.

– وانتي قُلتيله إيه؟

– لأ أكيد ما ردتش.

– ده ازاي يعني؟

– غيَّرت الموضوع على طول.. انتي عارفة الحركات دي.

– طيب وانتي إيه رأيك فيه؟

– بصراحة الواد زي القمر وابن ناس وراكب عربية حلوة ودمه خفيف.. ما فيهوش عيب بصراحة.

– وعرفتي منين إنه راكب عربية حلوة؟

– ما هو وصلني كام مرة.

– كمان وأنا ما اعرفش أي حاجة؟!

– مانا بقولك أهو.

– بصي.. هو لو مرتاحة له وبتحبيه يبقى أحسن كتير، مش ماما اللي جايبالي واحد لا أعرفه ولا يعرفني وعايزاني أقابله.

– ههههه.. وقابلتيه؟

– انتي عارفاني.. يعني أكيد لأ.

– طيب رأيك أقوله إيه؟

– بصي يا بنتي.. بواقع خبرتي مع العاهات اللي معايا في الدفعة اوعي تقولي لولد إنك بتحبيه.. اقرفيه واتقلي عليه على قد ما تقدري.. لو اديتيله ريق حلو هيقول عليكي سهلة بقى وكده.

– إيه التخلف ده يا «مريم»؟ هي خناقة؟! إحنا في 2014.. إيه شغل الفلاحين اللي بتقولي عليه ده؟

– ولو حتى في 2040، الحاجات دي ثابتة مش بتتغير.. اشتري مني، وفي الآخر ده رأيي وممكن يبقى غلط أو صح.

– مفيش لا غلط ولا صح، دي وجهة نظر بتختلف من شخص للتاني حسب تربيته والمجتمع والبيئة اللي جاي منها.

– لأ، بس برضه فيه حاجات غلط في الارتباط عمومًا أنا بقرف منها بجد.

– زي إيه بقى؟

– أقولك.. زي لما...

قاطعهما الفتى وهو يضع العصير والأيس كريم بحرفية شديدة:

- الشيشة لمين؟

- آه هنا.. بس حط ولعة صغيرة ومكسرة.

- عيني.

ثبتت «نرمين» اللي الطبي الذي جاءها به وبدأت في التدخين:

- ها.. كملي.

- زي الأهالي ما بيعملوا مع أي عريس جاي لبنتهم.. قمة القرف والانتهازية..

عايزين شقة مساحتها مليون متر في أنضف حتة في الدنيا، بعد كده أم المحروسة تقول للعريس عايزين شبكة بمية ألف وفستان ما اعرفش منين وفرح في فندق عمرها ما شافته غير في المسلسلات وكلام زي كده.. إيه القرف ده؟ بيرخصوا العلاقة اللي المفروض إنها علاقة ود ومحبة بين اتنين هتستمر لعمر طويل لفلوس وبس، اللي هيدفع أكتر نديله بنتنا.. أهم حاجة إنه يبقى غني..

- بصي.. مش كل البنات بتعمل كده، ومش كل الأهالي برضه تفكيرهم كده.

- لا يا ماما، أنا نص بنات دفعتي اتخطبوا وكلهم عملوا القرف ده.

- طيب انتي يا «مريم».. بذمتك مش هتعملي كده؟

- والله ما هعمل كده.. أنا مش متجوزة واحد عشان أقلّبه، أنا

المفروض يوم ما ربنا يكتبلي وأرتبط هيكون واحد بحبه وقلبي عليه ومصلحته من مصلحتي، مش العك والقرف ده.

– عندك حق.. طيب خلينا في موضوعنا.. انتي شايفة إن الارتباط دلوقتي حاجة صح؟

– بصي يا «نرمين».. انتي لسه عندك 21 سنة، أنا ما رضيتش أقولك ده مش وقته خالص لا تفتكريني غيرانة منك.

– إيه يا «مريم» اللي بتقوليه ده؟ انتي زي أختي.. عيب تفكري كده فيَّ.

– طيب، ما دام كده اللي انتي فيه دلوقتي دي مشاعر تافهة في سن صغير ومفيش إدراك وتفكير كويس، الولد ده عنده 22 سنة، فرضنا إنكم اتخطبتوا هتتجوزوا إمتى بقى إن شاء الله؟!

– مش عارفة، بس لما نتخرج على طول.

– لما تتخرجوا هيكون هو لسه عيل عنده بالكتير 25 سنة بياخد مصروفه، وانتي لسه عيلة هتشيلي الهم من دلوقتي وبيت وعيال وكلام زي كده؟! أنا شايفة إن الكلام ده وقته مش قبل 28 سنة، تكون البنت عقلت كده وكبرت والولد نفس الكلام، ساعتها ينفع يبقى فيه ارتباط، ودي وجهة نظري برضه..من حقك تقتنعي بيها أو لأ.. وبعدين «حازم» اللي بيحبك ده حاطط توكة في شعرة وشكله مركب **lenses** في عينيه.. عينيه مش ملونة على فكرة.

– هههههه، لأ مش لدرجة **lenses** يعني.. خلاص بقى فكك

منه دلوقتي.. أنا نفسي أسافر بقى.

– لسه يا «نيمو» الفكرة في دماغك؟

– أكيد.. أنا عايزة أسافر أصلًا من قبل ما أدخل الكلية.

– تسافري فين بقى؟

– مانا لسه مش عارفة، بس نفسي المكان اللي هسافرله يكون كل الناس اللي فيه راقيين جدًّا ودماغهم نضيفة وبيفكروا بنفس طريقتي، مش عايزة ألاقي هناك أي إنسان متخلف أو جاهل.. مش عايزة ألاقي فقر وجوع وشحاتين وبطالة وحوادث وقرف.

– عايزة تسافري الجنة ولا إيه؟

– لو ينفع أعمل مدينة ليّ لوحدي واللي يسكن فيها يبقى بأمري ومزاجي هعمل كده.

– ربنا يوفقك يا حبيبتي.. الشيشة خليتك همِّيسي.

– ههههه.. دي فانيليا طعمها حلو أوي.. تحبي تجربي؟

– هاتي أجرب، ما اجربش ليه يعني؟ هي جت عليّ؟!

أخذت «مريم» عدة أنفاس من «نرمين» وهي مستمتعة بالشيشة اللذيذة..

– طيب يا «مريم».. ما وصلناش لحل بخصوص السفر.

– انتي إيه اللي مضايقك يا «نرمين» يا حبيبتي؟

– يا «مريم» أنا بتكلم بجد، البلد بقت وحشة بجد، الشوارع ما

تتصوريش قد إيه أنا بكره أمشي فيها، سواء من ناحية إني خايفة لا حد قدر يمد إيده عليَّ ومن ناحية إن كلها زبالة وتراب ومش متقفلة وقرف بجد.. بلد منهوبة وشعب منهوب ومظلوم.

– ده على أساس إننا ما عملناش ثورة ولا حاجة حصلت ولا اتغيرت ولا الهوا، شباب ماتوا وبس؟! بصي يا «نرمين».. أنا بما إني قريت علم نفس كتير وإن شاء الله هتخصص طب نفسي هشرحلك سيكولوجية البلد وشعبها.. إحنا لسه ما عندناش العلم اللي قادر إنه يحولنا لشعب متحضر وبلد راقية من الأصل مهما حصل ومين حكمنا هنفضل كده للأبد، إحنا أصلًا عندنا كم همجية وعنف غير طبيعي.. أبسط حاجة حوار الشوارع اللي مش نضيفة اللي بتقولي عليه، تقدري تقوليلي كام واحد من وسط 100 مليون بيهتم إنه ما يرميش زبالته في الأرض ويحافظ على نضافة الشارع بتاعه؟! لو كملوا المليون هعزمك على الشيشة والأيس كريم..

– ههههه.. تيجي نسأل الولد اللي هناك ده عن رأيه؟

– اعقلي بقى يا «نرمين».

– لا.

نادت «نرمين» على الفتى:

– لو سمحت.. ممكن دقيقة؟

أتى الفتى بسرعة:

– أي خدمة يا أفندم؟

- انت اسمك إيه؟

- «حسام».

- عندك كام سنة يا «حسام»؟

- عندي 22 سنة.

- قدنا يعني.. في كلية إيه بقى؟

- أنا في صيدلة عين شمس.

اندهشتا وقالتا في صوت واحد:

- احلف!

- والله في صيدلة.

- طيب وليه بتشتغل هنا؟ انت راجل دكتور يعني.

- مش الفكرة.. حضرتك فكرة الشغل في حد ذاتها مش عيب وما تعيبش حد، أنا بساعد والدتي في المصاريف وفي نفس الوقت بصرف على نفسي، 5 ساعات كل يوم وشغلانة مش متعبة أوي، وهانت، كلها سنتين وأتخرج.. وبعدين أنا الكبير، والدي متوفي؛ فالمفروض راجل البيت يعني وأساعد في المصاريف.

أحست «نرمين» أنها أحرجته بعدما نظرت لها «مريم» ثم استطردت:

- أنا مش قصدي حاجة، أنا استغربت بس لما لقيتك في صيدلة.

- حضرتك صيدلة، تجارة، آداب، حقوق.. كلها كليات وليها

احترامها برضه، مش هتفرق أوي يعني كل واحد في المجال اللي بيحبه لو ناجح هيبقى أحسن من دكتور فاشل.

– انت صح.

قالت «مريم»:

– وإيه رأيك في بلدك بقى يا دكتور «حسام»؟

– رأيي من ناحية إيه؟

– من ناحية كل حاجة.

– رأيي إن بلدنا مش حلوة أوي، بس برضه أحسن من غيرها.

– أهو ده الكلام اللي مالوش لزمة أو اللي إحنا بنقنع نفسنا بيه.. أحسن من غيرها في إيه بقى يا دكتور؟

– هقولك..

وأخذ نفسًا عميقًا ثم استطرد:

– كحياة وعيشة مادية مش أحسن من أي حاجة، بالعكس أي بلد هتكون أحسن من دي ماديًّا.. إنما كحياة بعيدة عن الماديات، هنا أحسن من غيرها.. هنا أهلي وناسي وأصحابي، هنا لو وقعت في مصيبة أكيد هلاقي اللي يساعدني، هنا وطني.. هنا اتولدت وكبرت.. هنا بلدي من الآخر وبالنسبة لي مهما كان اللي هنا مُر فهو أحسن من عسل الغربة.

نادى مدير المكان بعصبية على «حسام» يحثه على استكمال عمله

والكف عن الحديث.

ابتسم «حسام»:

– حالًا يا مستر.

تبسَّمت له «مريم» و«نرمين» وهمَّ «حسام» بالانصراف، لكن «نرمين» استوقفته ممسكة بورقة مطوية وناولته إياها في يده.. تغيَّرت ملامح «حسام» إلى الحرج والاضطراب ثم ابتسم بصعوبة.

– متشكر جدًّا حضرتك، مش محتاج مساعدة بجد.

ثم انصرف.

عاتبت «مريم» «نرمين» بعصبية:

– ليه كده يا بنتي؟!

– أنا صدقيني بديله الفلوس بحُسن نية كمساعدة.

– كانت حركة بايخة جدًّا يا معتوهة.

– خلاص بقى ما قُلنا ما كنتش أقصد.

ثم نادت «نرمين» ملوحةً بيدها أنها تريد الحساب.

نصف ساعة استغرقتاه للوصول إلى المنزل.. غيّرتا ملابسهما.

– «نرمين».. انتي قاعدة ولا هتنامي؟

– هقعد ساعة أذاكر لي كلمتين عشان عندي **quiz** بكرة وهنام.

– ماشي.. أنا هنام، بلاش دوشة بقى.

– ماشي.. أنا مش بذاكر بصوت أصلًا.

دخلت «مريم» غرفتها وفي عينيها فضول لا يوصف وحدَّثت نفسها قائلة:

– يا ترى هسمع إيه ولا هشوف إيه يا دكتور يا غامض انت؟ شكلك وراك بلاوي.

ثم وضعت الشريط الثالث ما قبل الأخير؛ إذ لم يتبقَّ سوى شريط واحد آخر.. وبدأت في الاستماع..

***

الشريط الثالث

في العاشرة كانت العيادة خالية.. لم يجلس «كريم» سوى دقيقتين حتى نادته الفتاة اللي تعمل بالمكان:

- تقدر تدخل دلوقتي.

قرع «كريم» الباب.. رد «مالك» بإرهاق:

- تعالى يا «كريم».. عامل إيه؟

ابتسم «كريم» حين رآه.. بدأ يحس بألفة وارتياح ناحية «مالك» بعد ثاني جلسة، وله حق؛ فـ«مالك» طبيب بارع ومتميز بكل المقاييس.. بالإضافة إلى أدبه الشديد واحتضانه لأي مريض بعناية فائقة.

- موجود.

- إيه موجود دي؟!

– وهو أنا اللي فيه ده عيشة ولا حياة.. إطلاقًا، أنا موجود فقط.. انت اللي مالك؟ أول مرة أشوفك كده.. حاسك حزين.

– مش حزين بالمعنى الحرفي للكلمة، بس فيه مشاكل وفيه هموم وفيه التزامات كتير وفيه قرف.. مراتي والعيال مصاريفهم مش بتخلص وأنا تعبت بجد.

– هههههه، دي آخرة الجواز يا طبيبي.. مشروع فاشل.. ما حدش جربه ولا داق مراره أدّي.. بداية من أبويا وأمي لحد حبي وجوازي اللي ما كانش ليه علاقة بحبي.

– «كريم».. الجواز مش كله مشاكل وبس، وبعيدًا عن أي حاجة يا «كريم» انت مريض، وأنا تقريبًا قدرت أحدد مرضك، بس لسه مش متأكد منه أوي.. فأي مشاكل حصلتلك ده بسبب إنك مريض وهتلاقي إنك انت اللي سببتها لنفسك مش حد تاني ولا الحياة زي ما انت مقتنع، يمكن الحياة ساهمت في تفاقمها، بس انت السبب الأساسي.

رد «كريم» باستنكار:

– مريض؟! انت شايفني مريض؟

– المرض النفسي مش عيب ولا حاجة تزعل، انت دكتور، ومصطلح زي ده مش المفروض يضايقك.. المرض النفسي زيه زي الضغط والسكر، أي حد معرض للإصابة بيه.. ولو فرضنا إنك مش مريض، ليه بتيجي لطبيب نفسي تخصصه أصلا علاج المرضى

النفسيين؟

ابتسم «كريم» على مضض.. ثم أخرج من علبة سجائره سيجارة.

استطرد «مالك» بسرعة:

- «كريم».. هات سيجارة.

- ده من إمتى بقى؟

- عادي، عايز أجربها، وأنا قرفان أصلًا.. ما جتش ع السيجارة بقى.

- بس السجاير مش هتودي القرف.. أنا معايا اللي يدمر لك أم القرف ده.

أخرج علبة سجائره مرة أخرى وقلبها ثم ضرب بالوسطى والسبابة على قاعدة العلبة وأخرج قطعة حشيش أسفل الكارتيلا.. أمسكها وحرك يديه بها بحركة بهلوانية خفيفة الظل..

- بص يا «مالك» يا أخويا.. ده حشيش.. الحتة دي تمنها ما تقدرش عليه إطلاقًا.. حتة ما تلاقيهاش غير مع «كريم» وبس.

أخذها «مالك» من يده ليتفحَّصها.. أدارها يمينًا ويسارًا بفضول.. شمَّها عدة مرات، لكن لم تكن لها رائحة نفاذة أو قوية.. شعر «مالك» بأن هذه القطعة تناديه ليلتها ليعرف مذاقها ويعرف استخداماتها التي درسها في الكلية بالتفصيل.

قال «كريم» بخبث وابتسامة ماكرة:

– تحب تجرب؟!

– آه.. بس اوعى تكون بتسطل، لحسن ما اعرفش أروَّح.. إحنا خدنا في الكلية إنها بتسطل.

– بص يا صديقي.. مفيش حاجة بتسطل غير الخمرة فقط.. الحشيش مش بيسطل إطلاقًا، الحشيش بالبلدي كده بيخليك مبسوط وانت فايق، بيخلي عندك قدرة على الضحك والتناحة والهدوء غريبة، ده بالبلدي، بس عشان أنا قلتهولك كده مش هتقتنع.. هقولك بقى نفس الكلام بس بصورة علمية بحتة.. ميكانيزم أو تأثير الحشيش علميًّا إنه بيعمل **mental excitement** بيصاحبها حساسية قليلة جدًّا للوقت والمسافات + ارتخاء لكل عضلاتك وأعصابك.. تمام؟ بس ليه عيبين بكرههم.

– إيه؟!

– بيجوَّع أوي وبيعطَّش أوي.

– لا عادي، بس فيه سؤال: الحتة دي عاملة زي البلاستيك أو الخشب، ازاي هتتلف في سيجارة؟ ده مش تبغ!!

ضحك «كريم» بشدة:

– بتفكرني بأول مرة شربته فيها، نفس السؤال.

بص يا ريس على الإبداع والفن وشوف الكيميائي وهو بيحضر.

أخرج «كريم» سيجارة ثم أخذ ورقة صغيرة من «مالك».. لحس السيجارة بطولها، بعدها قطع موضع الورقة المبلل بلعابه.. أسقط كل

التبغ في الورقة التي أخذها.. قطع جزءًا من الكارتيلا ووضع به قطعة الحشيش وأحكم لف الكارتيلا عليها.. أشعل فيها النار حتى أصبحت قطعة الحشيش طرية جدًّا كالصلصال.. أخرجها من الكارتيلا ووضعها على الورقة المليئة بالتبغ وظل يفركهما معًا حتى أصبحا متجانسين تمامًا.. أخرج ورقة بفرة من محفظته ورص الخليط بطولها.. وضع فلتر في مؤخرتها وأحكم الإغلاق وأشعل.

كان «مالك» مستمتعًا ومنبهرًا جدًّا بالمشاهدة كأنه يشاهد عرضًا في السيرك.. أخذ «كريم» نفسًا طويلًا ثم ناول «مالك»:

- شد يا ريس.

أخذ «مالك» السيجارة وأمسكها مسكة طفل في الصف الثالث الإعدادي لأول مرة يدخن..

أخذ عدة أنفاس:

- طعمه غريب.

- عارف.

- يا نهار اسود ع الدنيا.. اتنين دكاترة محترمين قاعدين بيحششوا؟!

- كل المفكرين والأدباء والرؤساء والعلماء والعباقرة بيشربوا حشيش على فكرة.. أمال نيوتن اكتشف الجاذبية ازاي بس؟!

- والله نيوتن كان حشاش هو كمان.. المهم بقى دلوقتي إحنا آخر حاجة وقفنا عندها كانت...

قاطعه «كريم» بابتسامة حنين قائلًا:

- «دارين».

- بالظبط كده.

- بس المرة دي الحوار طويل، أنا تقريبًا هحكيلك 8 سنين من أول الجامعة لحد ما اتخرجت واشتغلت وسافرت.

- وأنا كلي آذان مصغية.

- تمام أوي..

***

1991.. قبل بدء الدراسة بشهر

انقلبت حياة «كريم» رأسًا على عقب بعد انقضاء أمر والديه.. كان تائهًا وحيدًا تمامًا، لا أهل ولا أقارب، حتى الباقون منهم لم يفكروا حتى في السؤال عليه أو مساعدته بأي طريقة..

قاسية هي الحياة.. أليس كذلك؟

لم يجد «كريم» أمامه سوى بضعة آلاف من الجنيهات وسيارة والدته، هذا ميراثه، إذا أضاعه لن يجد ما يصرف منه أبدًا؛ لذا فضَّل «كريم» ألا يصل إلى هذا الحال.. فبعد ظهور النتيجة والتحاقه بكلية طب الفم والأسنان كان يجب عليه أن يعمل ليحصل على مال يصرف ويعيش منه سنوات الجامعة الخمس؛ لذا عمل في محل بقالة قريبًا من منزله ثماني ساعات يوميًّا.. يجيء للزبائن بما يريدون.. يرص البضائع القادمة ويسعِّرها.. يكنس ويمسح إذا تطلب الأمر.. عمل شاق ومتعب أدَّاه «كريم» بكل ضمير وإخلاص واجتهاد؛ لهذا أحبه

صاحب المحل ولم يبخل عليه مطلقًا ولم يُهِنه أو يجرحه يومًا، كان يعلم ظروفه وحالته وأنه في الأول والآخر طالب مجتهد بكلية الطب وبعد أيام سيكون طبيبًا؛ لذا احترمه وأحبه.. الشيء الغريب هو موقف «كريم»؛ فقد كان سعيدًا بعمله.. أحس برجولته وكيانه بعيدًا عن الخوف والقهر والرعب والسنوات المخيفة غير المطمئنة بالمرة التي عاشها مع «نجوى» و«جسار» اللذين شاء القدر أن يكونا والديه.. أدرك «كريم» أن الشدة تصنع الرجال؛ فهو يحصل على رزقه وقوت يومه ومصاريفه بتعبه وجده وليس كأي شاب آخر في مثل سنه يأخذ مصروفه من والده؛ لذا عرف «كريم» قيمة المال ولم يكن ينفقه بسهولة لأنه جاء بتعب وشقاء.. لكن كانت هناك صعوبات تواجهه؛ فكان يعود من العمل ينظف الشقة ويطبخ لنفسه ويغسل ملابسه.. جميع أعمال المنزل كان يؤديها بنفسه.. ظل هكذا شهرًا كاملًا حتى بدأت الدراسة..

***

أول أسبوع بالكلية

لم ينسَ «كريم» هذا الأسبوع أبدًا.. عالم جديد تمامًا لا علم له به.. عالم مختلف تمامًا عن المدرسة.. كان «كريم» في أول يوم منبهرًا بالذين معه، سواء طلبة أو دكاترة، كلهم مختلفون.. الطلبة كانوا ثلاثة أقسام؛ فمنهم: شديدو الثراء، ومنهم: شديدو الفقر الذين كان أغلبهم فلاحين من قرى ونجوع، ومنهم: الطبقة المتوسطة التي مثّلت أغلبهم مع تنوعها وتنوع أشكالها.. لم يجد «كريم» نفسه مع أي طبقة منهم!! لم يحاول الاقتراب منهم أو الاحتكاك بهم.. تسعون بالمائة منهم كانوا في نظره عاهات، متخلفين عقليًّا، لا يعرف كيف أدوا في الثانوية العامة أداءً حسنًا يؤهلهم للالتحاق بكلية راقية مثل طب الأسنان.. مع أن «كريم» لم يكن عنصريًّا أو محتقرًا لغيره يومًا، لكن احتقر الكثير في الجامعة بسبب مظهرهم أو اتجاهاتهم السياسية التي لا يعلم عنها سوى أنها مقززة، لكنه لا يريد أن يعلم أكثر من ذلك؛ فكلهم جهلة ومختلون من وجهة نظره.. مظهر «كريم» لم يكن سيئًا أو

فقيرًا، بالعكس كان حريصًا جدًّا على أن يكون من أشيك الطلبة بقدر ما يتيسر له من مرتب البقالة وبعض نقود والدته، بالإضافة إلى ذهابه للجامعة بسيارة والدته ال (Fiat) كنوع من الوجاهة أيضًا.. «كريم» من يومه وهو نزيه.. لكن زملاءه على الرغم من عدم تعامله معهم دائمًا كانوا يحسون أنه غريب الأطوار.. حزين أغلب الوقت وخائف من شيء لا يعلمونه.. متوتر دائمًا، يبدو ذلك على ملامحه وحركات يده.. مضطرب في العلاقات الاجتماعية؛ فهو لم يفكر مطلقًا في التعامل مع أحدهم.. دائمًا يرونه منزويًا وقت الفراغ بين المحاضرات في ركن، وحيدًا لا تفارقه سيجارته ونظرة شاردة في اللاشيء..

مع الوقت، زادت أعباء «كريم» وأحماله بين الاستيقاظ مبكرًا يوميًّا للجامعة والعودة للمنزل ليستريح ساعة ثم ينزل للعمل ويعود ليلًا.. كان يذاكر ليلًا ساعة أو ساعتين بصعوبة بالغة وينام ثم يستيقظ للجامعة... وهكذا..

تعرَّض لموقف محرج في فترة الراحة بين المحاضرات؛ إذ كان يجلس وحيدًا على السلم ممسكًا بزجاجة عصير وسيجارة، وعلى العكس تمامًا كل دفعته كوَّنوا صداقات وكانوا يقفون معًا يضحكون، وجاءه ولدان شكلهما مستفز لأقصى درجة وناداه:

– مالك يا عم؟ من يوم ما دخلت المخروبة دي وانت عايشلي في الدور وقاعد لوحدك وماسكلي سيجارة وعامل زي أسير الأحزان كده!

تطلع إليهما باحتقار، ثم نظر أمامه دون النظر إليهما:

- حاجة ما تخصش حد فيكم.

- يا عم شكلك أهبل، إحنا غلطانين، والبنات بيضحكوا عليك، فاكرينك متخلف عقليًّا بجد.. ده جزاءنا يعني؟

تدخل صديقه الآخر:

- يا عم سيبك منه، ده شكله أهبل بجد.

أمسك «كريم» بأعصابه قدر الإمكان وحاول ألا ينفعل عليهما أو يتشاجر معهما:

- مش هتسيبوني في حالي بقى وتمشوا؟!

- لا مش هنسيبك، واسترجل ياض كده، ما تبقاش زي المرة.

كانت خلفهم بسلمتين فتاة تجلس تحادث إحدى زميلاتها.. شعرها بني طويل جدًّا.. عيناها عسليتان.. طويلة نسبيًّا.. مشدودة القوام.. ليست رفيعة ولا سمينة.. جمالها لا يوصف بكلام.. باختصار كانت أشبه بالجميلة الأمريكية **heather graham**.

كان صوتهم مرتفعًا نسبيًّا فوصل أغلب الحديث إلى سمعها.. قامت من مكانها غاضبة وكأن الإهانة وُجهت إليها وليس إليه.. نظرت إلى الفتيين المتطفلين بغضب:

- فيه حاجة؟ مالكم وماله؟!

- إحنا ما عملناش ليه حاجة، وبعدين انتي مالك؟ ولا هو مش

دكر ولازم بنت تحاميله؟

– بنت مين دي اللي تحاميله؟ ما تخليكم محترمين وعيب اللي بتعملوه ده بدل ما أخلي شكلكم وحش.

وصل «كريم» إلى أوج غضبه.. كاد يبكي من فرط الإهانة.. أراد القيام والهروب لكن لم يستطِع.

– طيب كتّي بقى واهدي ما تقليش أدبك.

تدخل «كريم»:

– حصل خير.. حصل خير.

قالت الفتاة بعصبية:

– لأ ما حصلش خير بقى.

ونادت بصوت عالٍ:

– يا إبراااام.. يا حاااازم.. تعالوا.

قبل أن يأتي الاثنان، كان «كريم» قد ضرب الطفيلي الأول في وجهه بشدة ضربةً جعلت أنفه يترف، ثم مشى دون النظر إلى شيء.

تدخل الفتيان اللذان نادتهما الفتاة:

– الواد اللي بيجري ده عملك إيه؟

– لا مش هو.. الاتنين دول هما اللي قلوا أدبهم عليَّ.

قام «حازم» و«إبرام» بالواجب، و«كريم» كان قد دخل إلى

المحاضرة.. كانت محاضرة Dentition،لم يركّز في كلمة واحدة، كان في نفسه غضب وحزن مخيفان.. أحس بضعفه ووحدته، أحس أنه بلا سند أو حماية، ومرَّ تدريجيًّا الشريط المؤلم في دماغه.. مشاهد لأبيه يضرب أمه.. مشهد موتها..

انتشله من شروده وجود الفتاة الجميلة التي دافعت عنه منذ دقائق بجانبه.. نظر لها مبتسمًا ابتسامة شكر وامتنان لا تخلو من الإحراج والإحساس بالعجز.

- أنا جنبك بقالي ربع ساعة.. ما خدتش بالك مني خالص؟

- آسف بجد، أصلي كنت...

- خلاص يا عم ولا يهمك.. أنا «دارين» معاك في أولى، وانت اسمك إيه بقى؟

- «كريم جسار».

- أهلًا وسهلًا يا «كريم».

قال بخجل:

- أهلا بيكي يا أفندم.

- أفندم؟! ماشي. «كريم».. أنا كنت عايزة أسألك سؤال، بس بجد ما أقصدش حاجة يعني.

- اتفضلي طبعًا.

- انت ليه قاعد لوحدك على طول كده؟ مش بتقف معانا ليه؟

حد ضايقك أو زعلك في حاجة؟

- لا خالص، صدقيني أنا بس زي ما تقولي مش بعرف أتعامل مع الناس أوي أو ما بحبش أتعامل معاهم.

- هم أغلبهم عيال زبالة آه بس فيهم ناس كويسين برضه، ولا إيه؟!

- لأ طبعًا أكيد فيهم، بس...

صمت قليلًا وتابع:

- معلش، أنا كده مرتاح أكتر وأنا لوحدي.

- طبعًا براحتك، بس إحنا من النهارده هنبقى أصحاب.. لو يضايقك قول عادي يعني ههزأك وأمشي.

ضحك «كريم»:

- لاااا، يضايقني ازاي بس؟ تشرفت بمعرفتك بجد.

صوت مرعب مرتفع قادم من أول الصفوف من طبيب بدين:

- الولد والبنت اللي في آخر صف، تحبوا نجيب اتنين لمون؟

احمر وجه كليهما.. كادت «دارين» ترد، لكن الدكتور لم يعطِها فرصة:

- انتو الاتنين.. اطلعوا برّه...

قاطعته «دارين»:

- يا دكتور والله ما اتكلمنا.

- قلت اطلعوا برّه، ولو زودتي في الكلام هقولك ما تحضريش تاني لآخر التيرم.

نهض «كريم» و«دارين» محرجين من الموقف السخيف إلى خارج المحاضرة وسط نظرات باهتة من الطلاب.

- أنا آسف بجد إنك طلعتي برَّه بسببي.

قالها «كريم» بإحراج.

- آسف إيه بس؟ أحسن، دكتور غتت ومحاضرة أغتت منه.. تيجي نقعد في الكافيتيريا؟

- آه طبعًا، ماشي.

وصلا إلى الكافيتيريا و«دارين» كانت طوال الطريق تسبقه بخطوتين..

- ها.. تشرب إيه؟

- أنا هجيب شاي.. تحبي تشربي إيه؟

- هات بيبسي.

قام «كريم» وطلب الشاي والبيبسي ودفع الحساب.

- ياه.. وعازمني كمان؟!

- ده ولا حاجة.. عادي يعني.

– أنا كده كده ما كنتش هدفع.

لحظات من الصمت و«كريم» كأنه طفل أول مرة يذهب للحضانة.

– «كريم».. انت إيه مشكلتك؟ ممكن تحكيلي؟!

– هيفرق معاكي يعني؟!

– مش قلنا إن إحنا خلاص بقينا أصحاب؟! أدينا بنحكي.

– لو حكيتلك مش هتفهمي.. صدقيني.

– مين قالك إني مش هفهم؟! جرِّب طيب.

صمت آخر لـــ«كريم» دون رد.

استكملت «دارين»:

– على فكرة، اللي انت فيه ده مش حلو.. مهما كانت مشاكلك اللي أنا ما اعرفهاش كبيرة فما حدش ما عندوش مشاكل ومش حلها إنك تقفل على نفسك وتبقى لوحدك.. صدقني انت كده اللي خسران، ما حدش تاني.. انت كده فاكر إنك بتعاقب الناس اللي ما بتتعاملش معاهم، لكن الحقيقة انت مش بتعاقب غير نفسك ومش بتعاند غير مع نفسك.. يابني سواء حبيت الحياة أو ما حبتهاش فهي هتتعاش هتتعاش، بالطول بالعرض هتتعاش، مفيش مفر believe me.. وعلى فكرة، انت ربنا بيحبك إنه بعتلك حالة نادرة ومميزة زي سيادتي.. مفيش بنت في مصر بتروح لولد تتصاحب عليه وتشوف مشاكله من أول مرة كده خبط لزق.. لو أنا شوفت فيلم

فيه حاجة زي كده مش هصدق أصلًا.. بس أنا حاسة إنك هتفرق معايا زي ما أنا هفرق معاك.. أنا من النهارده هعتبرك صاحبي وأخويا الراجل اللي بجد؛ لأني ارتحتلك بس.. مفيش سبب تاني.. صدقني.

– وأنا بجد ارتحتلك، ومن النهارده انتي صاحبتي.

– ماشي يا صديقي، الساعة 2.. مش هنروح بقى؟

– آه نروح، يلا.

– انت ساكن فين؟

– في فيصل.

– قريب مني يعني، طيب تعالى أوصلك في طريقي.

– لأ أنا هروح لوحدي.

– قلت يلا، انت في طريقي صدقني، لو مش في طريقي ما كنتش وصلتك، مش هتكسف يعني.

كانت لها طريقة لا تقاوَم.. ترغمك على أن تعشقها: عفويتها.. جمالها.. ابتسامتها.. نظراتها.. صوتها.. «دارين» أشبه بالملائكة.. «دارين» هي أول شيء جيد وطاهر ونقي يصادف «كريم» في حياته القبيحة.. «دارين».. حتى اسمها جميل.. ولكن مثل «دارين» لا يوجد كثيرًا أو بالأحرى لا يوجد من الأصل.

قام معها «كريم» حتى وصلا إلى سيارتها.. كانت السيارة مرسيدس موديل التسعينات، أعلى سيارة في وقتها، تدل على أنها من عائلة

ميسورة الحال ماديًّا إلى أقصى درجة.

- بابا بيشتغل إيه يا «كريم»؟

تبدلت ملامح وجهه ثم رد:

- والدي ووالدتي متوفيين.

- sorry.. آسفة بجد، ما كنتش أعرف.

- لا مفيش حاجة.. كويس إنهم متوفيين.

لم تفهم «دارين» الجملة.. جملة مقلقة ومخيفة!! مَن هذا الذي يرتاح عند وفاة والديه؟! لم تحاول الاستفهام وحاولت تغيير مسار الحوار:

- أمال انت بتصرف منين؟

- أنا بشتغل في سوبر ماركت وبقبض منه مرتب كويس، ده غير إن أمي سابتلي فلوس تعيِّشني الحمد لله مستور.

- جميل بجد إنك بتشتغل من دلوقتي.. دي حاجة حلوة بجد.

- ممممم.

دقائق كثيرة حتى وصلا إلى المنطقة المرادة..

- بس هنا، كده تمام.. أنا ساكن في آخر الشارع ده، وبجد متشكر على التوصيلة.

- لا ولا يهمك يابني، ما قلتلك انت في طريقي.

– ربنا يخليكي.

– ماشي.. أشوفك بكرة بقى.

– تمام.. مع السلامة.

- bye bye..

تمشَّى «كريم» حتى المترل وفي داخله الكثير من المشاعر المتضاربة، لكن الأكيد أنه كان سعيدًا.. «دارين» لم يقلقها سوى سعادته وارتياحه لوفاة والديه، وللحظة شكت أنه غير سوي، لكنها لن تتسرع في الحكم عليه، وأيضًا أحست أنها تسرعت وأنها كانت عفوية أكثر من اللازم حتى تصاحب فتى وتوصله حتى مترله بهذه السرعة.. هو في الأول وفي الآخر شاب مصري ذو طابع شرقي.. سيظن أنها سهلة كما يقال، لكنها تصرفت بعفوية فقط دون تفكير عميق ودون تضخيم وتهويل للأمور، و لكن ماذا بإنتظار دارين؟!

***

أنهى «كريم» الحكي قائلًا بابتسامة غلب عليها حنين جميل:

– ومن هنا بدأت الحكاية.

قالها وهو يتذكر ذلك اليوم كأنه أمس.

بادره «مالك» قائلًا بانتشاء وعينين شديدتي الاحمرار:

– وأكيد طبعًا حبيتها وهي حبتك؟

ضحك «كريم» ساخرًا:

– حب إيه بس اللي انت جاي تقول عليه؟ علاقتي بـــ«دارين» ما كانتش حب.. ده كان عشق مرضي ما فيهوش غير الاحتواء والمشاعر الراقية الجميلة.. فرق كبير أوي بين الحب وبين العشق اللي بيسبب المرض والإدمان، وحب «دارين» كان الحب الوحيد والأول والأخير في حياتي، وخُدها مني كلمة بنسبة كبيرة أوي، أول حب بيبقى أجمل وأصدق حب في حياة أي إنسان لو كان بجد.

– الله على الكلام.. الحشيش ده بيسلطن.

– يا عم ده انت اللي شربت السيجارة مش أنا.

– ههههه.. تصدق صح؟! ما تلفلنا كمان واحدة.

– إيه ده إيه ده؟ اعقل يا دكتور، كده لو لفّتلك واحدة كمان مش هتروح.

– أنا مش عايز أروح أصلًا والله.

– تعرف يا دكتور إن اللحظة اللي زي اللي انت فيها دي من أجمل اللحظات اللي كنت بحس بيها يوميًّا بس مع كتر الشرب ما بقتش أحس بيها زي الأول، بقت تطلب شرب أكتر و**dose** أعلى.. لحظة السطل والسكر.

– ازاي بقى؟!

– لحظة أو وقت السَّكرة لو كانت معقولة ومش مبالغ فيها لدرجة إنك تقع من طولك بتكون من وجهة نظري أنا كراجل خمورجي وحشاش من أجمل اللحظات في حياة الإنسان المهموم..

بتنسى فيها كل اللي جواك من مشاكل وهموم وأحزان.. بتنسى مش بتتناسى.. بتنسى غصب عنك وبتكون خارج الواقع في حتة تانية خاااالص..

طاير في دنيا تانية مفيهاش غير الضحك.. بتبقى زي الطفل مفيش عليك أي مشاكل أو أحمال.. ويا سلام بقى لو اللي بيشاركك اللحظة دي واحدة شديدة كده في نفس حالتك المزاجية بالظبط.. آه لو تعرف قيمة الحشيش بالأخص هتعرف ليه أنا بحبه! شوف الحتة الصغيرة البني دي غيِّرت مزاجك ازاي.. تخيل بقى لو العالم كله لف joint من بتوعي دول ومعاه كاس sherry ليوم واحد بس.. هيكون يوم مشهود في حياة البشرية.. هيكون يوم لم ولن ينساه التاريخ للأبد.. هيكون الجميع سُعداء بجد مش هيكون فيه في اليوم ده فقر أو جوع أو حرب أو أي مشاكل من أي نوع..

الأرض هترقص والسما هتضحك والكرة الأرضية هتدوخ وهتدور بسرعة أوي عشان داخت من الريحة.. كل الكواكب هتحسد الكره الأرضية على المزاج العالي ده.

– انت واثق إنك مش مسطول؟! إيه الهلس المعتوه اللي بتقوله ده بس؟ بما إنك معلّي أوي كده ومسلطن يا «كريم» أنا هعمل معاك عرض حلو.

– أسمعه.

– جلستك خلصت على كده وجلستي أنا هتبتدي دلوقتي.

- مش فاهم.

- أقولك..

قام «مالك» من مكانه وذهب إلى الحمام ليغسل وجهه كي يفيق ثم عاد وأمر «كريم» بالقيام من على كرسيه وجلس مكانه، ثم لوّح له بالجلوس مكانه.. جلس «كريم» على كرسي «مالك».

بادره «مالك»:

- دلوقتي انت الدكتور وأنا المريض.

- آه فهمت.. حلو ده.

- اسألني كل اللي نفسك فيه وأنا عليَّ أجاوبك.

والحقيقة أنها لم تكن مجرد لعبة للمزاح، بل كان «مالك» فعلًا في حاجة شديدة إلى الحديث ليُخرج كل ما بداخله من طاقة سلبية.

ابتسم «كريم» ثم رسم ملامح جدية على وجهه وقلّد «مالك»:

- جاي هنا ليه بقى؟ بتشكي من إيه؟

- حاجات كتير بجد.. مشاكل ما بتخلصش، يمكن تكون تقليدية بس أنا عايز أتكلم.

- دي أول خطوة لحل مشاكلك.. احكي وأنا سامعك.

- أنا عندي مشاكل كتير في البيت مع مراتي.. اتخانقت أنا و«يسرا» خناقة كبيرة امبارح وغلطنا في بعض، بس مش أوي يعني.. أنا و«يسرا» جوازنا ما كانش لا جواز تقليدي ولا جواز صالونات،

إحنا الاتنين كنا بنحب بعض.. بقالنا سبع سنين أهو متجوزين ودلوقتي معايا «ديانا» و«يسرا».. آه «يسرا»، سميتها على اسمها عشان هي فعلًا في معزة بنتي وغلاوتها عندي.. المهم أنا عليَّ مصاريف كتير أوي أوي أوي: قسط العربية وإيجار الشقة ومدارس «ديانا» و«يسرا»، مدارس لغات وسعرها حرّاق.. ده غير الأكل والشرب واللبس وكل الهري ده.. وبجد تعبت مش عارف أسد إيه ولا إيه، و«يسرا» للأسف عندها مشكلة إنها مش بتقدر التعب أو مش بتقدر إن فيه مشاكل ممكن تحصل بسبب عدم وجود فلوس كفاية، مش بتقدر العبء اللي عليَّ..

يمكن عشان كانت وحيدة أبوها وأمها، وهما ناس جامدين، فما اتعودتش على الإحساس بالحرمان أو نقص الفلوس.. الفلوس دايمًا موجودة وبعبط.. وكتير بتحرق دمي بجملة هاخد فلوس من بابا وهدفع اللي مش قادر عليه.. والحوار ده بيحرق دمي بمعنى الكلمة؛ لأن مش أنا اللي مراته تصرف عليه.. المهم، فاجئتني إنها بتصرف، وبتصرف من زمان كمان، بس ما كانتش بتقول.. المهم لما قالت كده انفعلت عليها واتخانقنا وقلينا أدبنا على بعض.. بس برضه ما أقدرش أقول إن «يسرا» قليلة الأصل أو مش كويسة، بالعكس «يسرا» طيبة جدًّا وبتحبني أوي وأنا عارف، هي بس متدلعة شوية وما بتعرفش تقول إيه وما تقولش إيه.. أنا اللي بيصبرني على أي مشكلة مع «يسرا» إنها بتحبني وأنا بجد بحبها.. حبي لـــ«يسرا» ولبيتي وبناتي هو اللي بيهون عليَّ أي تعب.. الحب هو أرقى حاجة في الدنيا وأسمى مشاعر ممكن تتحس.. اللي عايش من غير حب عامة أيًّا كان نوع

الحب ده ولمين فهو مش عايش.

-طيب واللي ضاع الحب منه؟

-الحب مش بيضيع، هو مش حاجة مادية عشان يضيع، ولو حصل وزي ما بتقول طلع مش حقيقي أو واجهته أي مصاعب منعت استمراره فالإنسان ده لازم يدور ع الحب ده في حاجة تانية، سواء إنسان أو شغل أو أطفال.. المهم يكون الحب لسه موجود.. أنا درست في الـ**psychiatry** إن الحب بيبقى علاج لبعض أنواع المرض النفسي، زيه زي الأدوية بالظبط.. فيه دراسة خدناها عن هرمون اسمه العلمي «**oxytocin**»، الهرمون ده **mainly** بيبقى عند السيدات بيحفز الرحم وبيحفز الرضاعة، بس اكتشفوا مؤخرًا إنه عند الرجالة وبيحسن الحالة المزاجية بشكل ملحوظ.. الهرمون ده معروف عاميًّا كده بهرمون الحب، موجود حتى في الحيوانات.. كون إن ربنا يبدع في خلق هرمون زي ده فده أكبر دليل على عظمة الخالق وإن الحب هو الحياة والأمل في بكرة.

-طيب انت بوّظت اللعبة.. أنا كده لسه الدكتور على فكره!

ضحك «مالك»:

-أعمل إيه بقى؟ ما انت اللي ما اتحكمتش في الجلسة صح، وبعدين يموت الزمار وصوابعه بتلعب.

-طيب اسمع بقى، أولًا: كلامك جميل بجد.. ثانيًا: هقولك حاجة.. أنا بدأت أحبك بجد يا «مالك»، وده قليل لما بيحصل.. أنا ارتحتلك

ارتحتلك أوي.. انت بقيت صديق وأخ بجد ليّ.

-أولًا: ده شرف ليّ، وثانيًا: دي شهادة لوحدها تثبت إني طبيب نفسي متميز.

-ماشي يا متميز.. اسمع ومن غير زعل.. انت محتاج كام ومشاكلك دي تتحل؟

رد «مالك» بعصبية:

-عيب كده على فكرة.. عيب أوي كمان.. أنا ما حكيتلكش عشان محتاج منك سلفة.

-لا حول الله.. اسمع يا حبيبي.. أنا أكبر منك ييجي بسبع سنين، انت زي أخويا الصغير، اللي أنا هديهولك ده سلف، يعني هاخدهم منك تاني، بس بعد ما تكون رتبت أمورك مش أكتر، كأنك بالظبط بتاخد شيك من البنك، وبعدين أنا لا عندي لا أهل ولا بيت ولا أي حد، وفي نفس الوقت عندي فلوس ما تتعدش بمعنى الكلمة، مش هلاقي أصلًا وقت أو مجال أو رغبة إني أصرفها.

-متفهم جدًّا لكل ده، بس برضه متشكر جدًّا، مش هاخد فلوس.

-براحتك خلاص.

-اعمل فيّ خدمة بجد وتعالى وصَّلني عشان عربيتي فضيت بنزين وما نزلتش بيها.

-انت تؤمر.

-بس هنكمل حوار «دارين» عندي في البيت.

-عندك إيه بس؟

-تعالى بس يلا نمشي وهنشوف بعدين.

نزل كلاهما من العيادة بعد إغلاقها، فتح «كريم» السيارة.. نظر «مالك» إلى السيارة بإعجاب شديد.. **BMW** سوداء **2014** أعلى فئة.. لا يركبها سوى شديدي الثراء من رجال الأعمال والوزراء والمحافظين.

-«كريم».. ممكن أطلب منك طلب محرج شوية؟

-إيه؟

-ممكن أسوق العربية دي؟

-ههههه.. ما سوقتش حاجة زي دي قبل كده؟

-ما سوقتش إيه! أنا ما ركبتش حاجة زي دي قبل كده، دي بشوفها في المسلسلات بس.

-يا دكتور ما تغلاش عليك، تعالى مكاني سوقها.

ركب «مالك» على كرسي السائق وهو يتفحص السيارة الفارهة ويستطلعها بإعجاب شديد:

-تزمتك حد يكون معاه عربية زي دي ويجيله اكتئاب؟!

ضحك «كريم» بحسرة واستخفاف:

-لو كانت الفلوس بتجيب السعادة كان زماني أسعد إنسان في

العالم.

-عارف صدقني، بس برضه ما ننكرش إن الفلوس بتشكل نسبة 25% من السعادة، وده أكيد.

-مش في كل الحالات صدقني.. ومع إني آخر واحد يتكلم عن السعادة لأني ما اعرفهاش ولا دُقت طعمها غير مرة واحدة مع «دارين» فأحب أقولك إن السعادة ماهاش مقاييس أو خطوات محددة أو متطلبات لو الواحد مشي عليها يبقى سعيد.. ممكن واحد يقولك السعادة في القناعة والرضا.. تمام؟! فيه ملياردير مشهور كان عنده كل أسباب السعادة بس مراته جالها **cancer** وماتت وعاش بقية حياته حزين عليها وأهو الفلوس ما سبتلوش السعادة، وبعد فترة الملياردير ده مات! مع إنه ما كانش عنده أي مرض.. لا الفلوس اشترتله الصحة ولا السعادة ولا حتى الحياة.. اللي مقتنع إن الفلوس المصدر الأساسي للسعادة ده غبي وجاهل أو يمكن عشان الفلوس مش عنده بقى مقتنع إنها أول ما تيجي الحياة هتضحك ويعيش سعيد.. طب انت تعرف إن نص الأغنيا بالظبط بيبقوا على طول عايشين في خوف على فلوسهم، بالذات لو كانوا حديثي النعمة والثراء، وأغلبهم برضه بيعيش نفس العيشة البائسة اللي كان عايشها وهو فقير عشان خايف على فلوسه.. دول أكتر فئة من الأغنيا أنا بحتقرهم وبشمئز منهم.. اوعى تخلي همك يا «مالك» إنك تجمع فلوس وتزوِّدها وتحطها فوق بعض وتبني وتشتري وتحوش وبس.. هتموت في الآخر.. هتموت ومش هتتمتع بقرش منهم.. وساعتها

مش هينفعك الندم.

-خلاص كفاية موت وأمراض جبتلي اكتئاب.

-اندمجت شوية أنا؟

-إحنا وصلنا أصلًا خلاص.

-ده بيتك!

ولوّح إلى برج كبير يتعدى الأدوار العشرة، منظره فخم وجميل.

-آه، أنا ساكن في الدور الأخير.. «كريم» انت ليه مشغل الـ**recorder** ده على طول مش بتقفله خالص؟!

-عادي يعني، بحب أسمع جلستنا تاني بكل تفاصيلها.

قالها بجدية وارتباك.

-تمام.. يلا بقى عشان تطلع تتعشى معانا.

-لأ، ألف شكر، اطلع انت الوقت اتأخر، وبعدين لسه لازم أكمل حكاية «دارين»، أنا كده كده مش محتاجك غير جلستين كمان.

-ليه اتنين؟!

-خلاص بكده مش هيكون عندي حاجة تاني تتحكي وبفكر بعدها أروح أسبانيا أقضي هناك أسبوعين كده أريَّح فيهم أعصابي، يمكن أرتاح شوية.

-تمام، ده حل مش بطال، بس قُلي ضروري قبل ما تسافر.. ويلا

ويلا بقى اخلص عشان نلحق نتعشى، واعتبر إنك قدامك جلسة واحدة لأنك هتكملّي حكاية «دارين» دي بعد ما نتعشى.

-مصمم يعني؟!

-آه مصمم.

-ماشي يا دوك.

دخلا مدخل البرج.. كان جميلًا ومبهرًا.. كله من الرخام.. ركبا المصعد وضغط «مالك» على زر 11.. رن جرس الباب.. تنحى «كريم» جانبًا بعيدًا عن الباب كنوع من الاحترام.. فتحت «يسرا»:

-إيه اللي أخّرك كده؟

-«يسرا».. معايا ضيوف.

أماءت بوجهها إيماءة تعجب ومفاجأة.

-اتفضل يا دكتور «كريم».

نظر «كريم» بأدب وعيناه في الأرض:

-مساء الخير يا مدام.. آسف بجد، بس هو اللي صمم أطلع.

-مساء النور.. عيب اللي بتقوله ده.. اتفضل حضرتك.

دخل «كريم» وعيناه ما زالتا في الأرض.. جلس في الصالة على كنبة خشبية سوداء شديدة الرقي وبمحاذاته كانت ابنتا «مالك» الجميلتان جدًّا جالستين.. ابتسم لهما «كريم» وداعبهما.. دقائق ونادى «مالك»:

-يلا يا «كريم».. الأكل جاهز.

-لازم يعني؟ والله مش قادر.

تدخلت «يسرا»:

-عيب يا دكتور، إحنا مش بُخلا.

-لا يا أفندم والله ما أقصد.

جلسوا جميعًا على السفرة وكان العشاء جميلًا.

قالت «يسرا»:

-هو حضرتك صاحب «مالك» من زمان؟

ارتبك «كريم» ولم يعرف ماذا يقول.. صمت ثواني ليفكر:

-آه حضرتك أنا أعرف «مالك» من زمان بس كان بقالنا فترة ما اتقابلناش.

-وحضرتك دكتور إيه بقى؟

-أنا دكتور أسنان.

-أمال لسه ما اتجوزتش لدلوقتي، مش شايفة فى إيدك دبلة؟

قالتها «يسرا» بعفوية.

رشف «كريم» من كوب الماء ورد بعصبية:

-لأ.

ردود فعل «كريم» دائمًا عنيفة وغير متوقعة إطلاقًا، وأحيانًا لا

توجد ردود فعل أصلًا!!

نظر «مالك» لـــ«يسرا» نظرة تدل على إيقاف الأسئلة والصمت.. ثم استكمل «كريم»:

- سفرة دايمة.. ميرسي جدًّا يا أفندم على العشا الجميل ده.

- لا على إيه بس؟

قالتها بحرص وصوت منخفض.

- الحمام لو سمحتي.

- يمين.. اللي قدام ده.

قام «مالك» معه إلى الحمام، وبعد أن غسلا أيديهما أدخله «مالك» إلى غرفة المكتب خاصته واستأذنه دقيقتين.. خرج فيهما إلى «يسرا»:

- نامي انتي والبنات، أنا لسه قدامي سهرة مع «كريم».

- أنا مش فاهمة حاجة.. مين «كريم» ده؟ وبتتكلموا في إيه؟

- والله والله هشرحلك كل حاجة بكرة.. نامي بس دلوقتي أرجوكي.

- ماشي!!

دخل «مالك» مرة أخرى إلى «كريم»:

- ها.. نكمل «دارين»؟

- نكمل «دارين».

***

انتهى الشريط هنا و«مريم» ما زالت جالسة على السرير بعد مرور حوالي ساعتين..

بداخلها فضول قاتل.. أرادت أن تضع الشريط قبل الأخير لتعرف ما ينقصها وتعرف ما حكاية «كريم» بالتفصيل، لكنها لم تستطِع مقاومة النوم فاستسلمت له!!

***

2014/10/1

في أول طريق مصر – الفيوم الصحراوي، عثر أحد السائقين على جثة ملقاة على جانب الطريق، لكن داخل الصحراء قليلًا، عندما دخل بسيارته المقطورة ليدخل بعض المعدات إلى هذه الأرض الجرداء لأعمال البناء.. بعد إبلاغ الشرطة جاء ضابط ومعه أحد مساعديه وعساكر لبحث أسباب الوفاة..

نزل الضابط «هشام» من سيارة الشرطة متثاقلًا.. توجه إلى الجثة مباشرة ومعه معاونه الرائد «أحمد».. تفحَّصها بعناية شديدة..

– فيه آثار ضربة قوية على راسه.

– يا «هشام» باشا، بس ده واخد طلقة في قلبه أهو!

– واضح كده إنه خد ضربة الأول على راسه عشان يفقد الوعي، بعد كده القاتل استدرجه لهنا عشان يقتله.. مش هنتسرع، فيه طبيب شرعي هو اللي هيحدد.. غطوا الجثة وانقلوها المشرحة..

يلا بسرعة.. فين السواق اللي لقى الجثة؟

- واقف هناك حضرتك.

- هاتهولي بسرعة يلا.. الجو حر وأنا خُلقي ضيق.

جاءه «أحمد» بالسائق الشاب.. تطلع إليه «هشام» وفي يده السيجارة:

- اسمك إيه بقى؟

- «شعبان» يا باشا.

- بص يا «شعبان».. احكيلي إيه اللي حصل بالظبط وبالتفصيل عشان لا تعطلني ولا أنا أعطلك.

- بص يا سعادة الباشا، أنا على الساعة 7 الصبح كده كنت داخل الطريق ده زي كل يوم، عشان بيبنوا هناك عمارات وكده للشباب أسعارها رخيصة، ربنا يخليلنا الحكومة.. المهم، نزلت لا مؤاخذة في ربع الطريق كده بعد ما دخلت في الرمل أفك زنقة..

لقيت الراجل ده مقلوب على ضهره.. جريت عليه أشوف ماله لقيته سايح في دمه كده زي ما سعادتك شايف.. والله ده اللي حصل.

- اهدا يا «شعبان».. طيب ما حستش بوجود أي حد في المنطقة ساعتها يعني وانت داخل؟ ما كانش فيه عربية طالعة، عربية داخلة، أي حركة في المكان؟

– لا يا باشا، ما كانش فيه حد خالص.

تدخل «أحمد»:

– يا أفندم.. بمحاذاة الجثة كده فيه آثار عجل عربية ملاكي.

– ما هو أنا بقى بسأل عشان كده، هل العربية دي كانت موجودة لسه من فترة قليلة ولا لأ؟

– يا أفندم.. المعمل الجنائي هيقولنا وقت الوفاة كان من كام ساعة، وبكده هنعرف الجريمة تمت إمتى.

تنهد «هشام» بعصبية وقال:

– هاتولي «شعبان» القسم..

– ليه بس يا باشا؟ أنا عملت إيه؟

– ما تخافش، هناخد أقوالك في محضر رسمي وتمشي.

***

المشرحة.. الساعة العاشرة مساءً

دخل «هشام» إلى الطبيب الشرعي «هيثم»، وضع يده اليمنى على كتفه اليسرى:

– عامل إيه يا «هيثم»؟

– «هشام».. الراجل ده دكتور نفسي.. أنا طلّعت المحفظة وبصيت فيها وفي بطاقته.. اسمه «مالك ممدوح»، السن: 37 سنة.

– الحمد لله، أنا نسيت خالص آخد محفظته.

– كده كده ما كانش عليها غير بصماته.. بص، الراجل ده مات الساعة 9 أو 10 تقريبًا.. وسبب الوفاة طلق ناري في منطقة القلب وفيه ضربة في نص راسه بآلة حادة أفقدته الوعي تمامًا، ومفيش أي آثار لأي ضرب أو اعتداء غير كده.

– طيب انت بتفكر في إيه؟

- لا أنا مفيش في دماغي حاجة.. دي وظيفتك انت مش أنا يا معلم.

ضحك «هشام»:

- ماشي يا عم، هات المحفظة وأنا هتصرف بقى لحد ما نشوف حد من أهله.

رجع «هشام» إلى المديرية ودخل مكتبه.. أمر العسكري بإحضار فنجان قهوة ثم أشعل سيجارة.. أخرج كل محتويات المحفظة.. وجد بطاقة مكتوبًا عليها اسمه ومحل الإقامة في هليوبوليس.. بعض النقود، حوالي 300 جنيه.. وبعض الكروت الأخرى عديمة الفائدة وكارنيه النقابة.. المحفظة توجد بها نقود! يبدو أن القتل لم يكن بدافع السرقة.. أخذ «هشام» رشفتين من فنجان القهوة ثم اتصل بـــ«أحمد»:

- تعالالي حالًا.. عرفت المجني عليه ساكن فين وهنروح هناك دلوقتي.

- تمام يا أفندم، دقايق وأكون عندك.

بعد مجيء «أحمد»، توجه كلاهما إلى المترل في صمت دون أي كلام طوال الطريق..

وصلا إلى المكان.. توجه «هشام» إلى بواب العمارة:

- دكتور «مالك» ساكن في الدور الكام؟

- آخر دور يا سعادة البيه.

- اطلع معانا ورينا الشقة.

رن «هشام» الجرس.. فتحت «يسرا» وهي ملهوفة ومنهارة.

- «هشام حماد».. مباحث.

كاد يُغشى عليها من الرعب والخوف:

- «مالك» حصل له حاجة؟!

- هو حضرتك ما شفتيش جرايد النهارده؟!

صمت تام.. دقات قلب متسارعة.. تمنت ألا ينطق الضابط.

- البقاء لله.

وقعت على الأرض في لحظتها.. وفقدت الوعي..

حملها «هشام» و«أحمد» لداخل الشقة.. حاول «أحمد» إفاقتها.. فزعت الطفلتان الصغيرتان..

أمسك «هشام» بـــ«ديانا»، الابنة الصغرى:

- حبيبتي.. ماما هتبقى كويسة دلوقتي، ما تعرفيش نمرة تيته أو جدو؟

- لا ما اعرفش.. ماما مالها؟

ثم أفلتت من يديه وجرت إلى أمها وتشبثت بها بشدة.

أمسك «هشام» بهاتف المنزل اللاسلكي.. بحث في الأرقام حتى وجد رقمًا مسجلًا باسم «**mom**».

– أيوه يا «يسرا».. عاملة إيه؟

– حضرتك أنا «هشام» من المباحث، ممكن تيجوا البيت حالًا؟

– «هشام» مين؟ أنا مش فاهم حاجة!

– تعالى حضرتك وهنفهمك كل حاجة.

– «يسرا» جرالها حاجة؟

– حضرتك بنتك زي الفل، ممكن تيجي وما تتأخرش؟ ثم أغلق «هشام» المكالمة الخط.

دخل «هشام» إلى غرف النوم.. فتش عن شيء لا يعلمه.. ثم فتش أرجاء الشقة كلها.. لم يجد أي شيء مفيد على الإطلاق.. بعد نصف ساعة جاءت والدة «يسرا» ووالدها، وفي نفسيهما فزع وخوف على ابنتهما لا يوصفان.. جرت الأم على «يسرا» عندما وجدتها فاقدة للوعي ومعها الأب.. حاول «أحمد» تهدئته ثم أخذه من يده إلى مكان آخر بالشقة ليطلعه «هشام» على كل شيء.

قال الأب وهو في حالة تقارب البكاء:

– فيه إيه يابني؟ أنا مش فاهم حاجة.

– اهدا حضرتك وهنفهمك كل حاجة.. جوز بنتك لقيناه الصبح على طريق مصر – الفيوم مقتول...

ولم يكمل «هشام».. صرخ الوالد:

– يا نهار اسود.. يا نهار اسود.. إيه اللي بتقوله ده؟

ثم انهار بالبكاء.

تأفف «هشام» بعصبية:

- «أحمد» أنا واقف تحت، ساعة بالظبط وطالع.. هدّي الناس دي كده عشان نعرف نتنيّل.

- حاضر يا أفندم، حاضر.

كان البواب ما زال بداخل الشقة.. سحبه «هشام» بحدة مستفزة.. نزلا إلى أسفل..

أشعل «هشام» سيجارة:

- اسمك إيه؟

- خدامك «حسين» يا بيه.

- تعرف إيه عن «مالك»؟

- طول عمره راجل طيب يا بيه، وعمري ما شفت منه حاجة وحشة أبدًا.

- ازاي يعني؟!

- يعني كان على طول ينزّلي أكل.. يديني بقشيش كل ما ألمّعله عربيته...

قاطعه «هشام» بسرعة:

- فين عربيته؟

- هي السودا اللي قدام دي.

- ما شفتش حد اتخانق معاه قريب؟ حسيته منفعل الفترة الأخيرة؟

- لا والله يا سعادة البيه ولا عمره اتخانق مع حد.. علاقته زي الفل مع كل سكان العمارة.

- متأكد يابني؟!

- ورب الكعبة متأكد من كل حرف بقوله لسيادتك.

صعد «هشام» مجددًا لبيت «مالك».. ما زال النحيب والبكاء مستمرين.. لكنه وجد أن زوجة «مالك» أفاقت.. توجَّه إليها بسرعة:

- حضرتك أنا مقدر اللي انتي فيه، بس أرجوكي اديني **10** دقايق بس.. اهدي **10** دقايق عشان أعرف سبب اللي حصل للمرحوم وأجيبلك حقه.

تشنجات شديدة.. يداها تهتزان بعصبية شديدة.. جسمها كله يرتعش.. بكاء كالسيل.

استطرد «مالك» وأمسك يديها وقال بصوت منخفض:

- كام كلمة وهسيبك.. أرجوكي.. كل ما اتأخرنا كل ما كان صعب علينا نلاقي القاتل.

ولا حياة لمن تنادي.. «يسرا» أفاقت بدنيًّا فقط.. لكن نفسها

غائبة عن الوعي تمامًا.. أمر «هشام» الأم:

– ممكن عصير لمون متلج بسرعة؟

– حاضر حاضر.

وجرت الأم إلى المطبخ مسروعة..

دقائق وأتت بالليمون.. ناوله «هشام» للزوجة.. أمسكته بيدين ترتعشان بقوة لدرجة أن ربعه سقط من الكوب.. وضع «هشام» يده على يدها.. وجَّهه إلى فمها.. شربته «يسرا» بصعوبة إلى آخره ويد «هشام» ما زالت ممسكة بها لضمان عدم إسقاطه.. دقائق من الصمت.. «يسرا» لا تزال تبكي.. لكنها تمالكت جزءًا صغيرًا من أعصابها.

– امبارح «مالك» نزل راح فين؟

بصعوبة وأغلب الكلام متقطع مصحوب ببكاء وشهيق وزفير متسارعين:

– نزل راح العيادة زي كل يوم.

– عظيم.. ما كلمكيش خالص امبارح؟

– لا ما كلمنيش، أنا لما لقيته اتأخر اتصلت بيه كتير لكن ما ردش خالص على الموبايل.

– الكلام ده كان الساعة كام؟

– حوالي 1 بالليل.

- «مالك» ما حكاش ليكي عن أي مشاكل، أي عداوة مع حد؟

- لأ، «مالك» عمره ما كان بتاع مشاكل.

- طيب أنا هسيبك النهارده وبكرة نكمل.. البقاء لله وربنا يصبرك.

توجه «هشام» إلى والدها:

- تعالى معانا يا أفندم ورينا مكان العيادة.

ركب والدها معهما السيارة وهو منهار تمامًا.. دار بينهم حديث عن كيف مات «مالك» وأين وبعض أسئلة التحقيق المعتادة.. وصلوا إلى العيادة التي لا تبعد كثيرًا عن المنزل.. كانت مغلقة.. قام «هشام» و«أحمد» بكسر القفل ودخلوا.. تفحصاها بعناية.. تفحصا مكتب «مالك».. لفت نظر «هشام» أن المكتب كان منظمًا إلى أقصى درجة.. لا توجد أي آثار لحدوث مشكلة أو خناقة أو اعتداء من أي نوع في هذا المكان.

فحص «هشام» المكتب.. وجد بعض الملفات، كل ملف عليه اسم أحد المرضى وحالته.. أخذهم بحوزته.. ثم سأل والد «يسرا»:

- هو فين التمرجي اللي هنا؟

- ما اعرفش يا ابني صدقني.

توجَّه «هشام» إلى قلب العيادة بعيدًا عن مكتب «مالك».. وجد

كشفًا به أسماء المرضى وموعد مجيئهم والتاريخ.. كان التاريخ ليلة وقوع الجريمة.. وآخر اسم بالعيادة الساعة الحادية عشرة مساءً كان «كريم جسار»، رن الاسم في أذنه مرة أخرى.. إنه اسم مألوف..

الشريط قبل الأخير

ما زال «كريم» و«مالك» في مكتب «مالك» في منزله.

– اللي أنا هحكيه دلوقتي كل سنين الجامعة وبعدها كام حاجة.

– تمام.

***

باع «كريم» سيارة والدته؛ نظرًا لزيادة مصاريفه تدريجيًّا.. مبلغ جيد سيساعده بالإضافة إلى مرتبه من محل البقالة، إذًا لا مشاكل مادية ستواجهه بإذن الله.. ابتسمت الحياة لـــ«كريم» لأول مرة وأحب الحياة أيضًا لأول مرة.. «دارين» كانت السبب الرئيسي في سعادة «كريم».. لم يعرف حتى اليوم لماذا انجذبت له «دارين» وأحبته! لم يكن في نفس مستواها المادي! لم يكن وسيمًا أو جذابًا لدرجة كبيرة! حتى شخصيته لم يكن بها شيء نادر أو فريد لا يوجد

في غيره..

في إجازة صيف أول سنة دراسية - كم يعشق «كريم» هذا التاريخ - اتصلت به «دارين» ظهرًا بعد أن توطدت علاقتهما وأصبح صديقها حقًا:

- ألو.

- «دارين».. ازيك؟

- أنا حلوة.. انت فين كده؟

- أنا في الشغل.

- طيب بص، أنا بالليل رايحة السينما مع اتنين صحباتي ومعاهم أصحابهم، عايزاك تيجي معانا، هما عيال زي السكر، عايزة أعرفك عليهم وأهي فسحة حلوة.

- مش هينفع صدقيني.. انتي عارفة مش بحب اللمة.

- تمام أوي.. أعدي عليك إمتى؟

- بقولك مش هينفع.

- ماشي، 6.30 هبقى تحت البيت عندك.. باي باي بقى.

«دارين» لا تقاوَم.. عفويتها لن تتكرر.. اعتذر «كريم» لصاحب البقالة عن عدم مواصلة العمل اليوم.. صعد إلى منزله.. أخذ حمامًا وحلق ذقنه.. ارتدى أفضل ما عنده.. كان شديد الأناقة يومها.. في تمام السادسة والنصف كانت «دارين» على أول شارع منزله..

لوّحت له بيدها ثم دقت «كلاكس» السيارة.. سلّم عليها بحرارة وكانت صديقتاها تجلسان بالخلف.

– مساء الخير.

– مساء النور.

تدخلت «دارين»:

– دي «سارة» ودي «مارينا».

بإحراج شديد:

– أهلًا بيكم.

«دارين»:

– ها.. هتدخلوا فيلم إيه؟

«سارة»:

– فيه فيلم عربي بتاع عادل إمام شكله حلو.

«دارين»:

– لأ ما بحبش عربي، فيه إيه أجنبي حلو؟

«سارة»:

– فيه فيلم حلو أوي بس مش فاكرة اسمه.

«دارين»:

– رأيك إيه يا «كريم»؟

«كريم»:

– أي حاجة، مش هتفرق معايا.

«دارين»:

– تمام، الأجنبي ده حلو.

ذهبوا إلى سينما بالهرم.. قابلوا الولدين هناك.. حجزوا تذاكر بعددهم.. دخلوا قاعة السينما وجلسوا في الصف نفسه، لكن «دارين» جلست بجوار فتى آخر ولم تجلس بجوار «كريم»!! نظر لها «كريم» وكأنه يقول: «تعالي جنبي»، لكن «دارين» تجاهلته تمامًا.. كان يستشيط غضبًا، خاصة عندما رآها تضحك مع الفتى الذي كان بجوارها..

أحس لأول مرة بمشاعر الغيرة!! غيرة؟! «كريم» وقع بحب «دارين»!! كان يتجاهل دائمًا ذلك الشعور، دائمًا ما كان يشعر بأن الحب تفاهة، بأنه أكبر من هذا الشعور الذي يخص الضعفاء فقط! ساعة مرت حتى حان وقت الاستراحة.. خرج «كريم» مسرعًا إلى خارج القاعة.. لاحظت «دارين» انفعاله وهو يخرج فلحقت به:

– يا «كريم».. «كريم».. رايح فين يابني؟

– ماشي، مروَّح.

– فيه إيه؟ حصل حاجة؟

– لا إطلاقًا، أنا بس زهقت والفيلم ممل.

- يابني اقف بقى، مش هجري وراك.

بحدة شديدة وصوت مرتفع:

- فيه إيه يا «دارين»؟ بقولك زهقت وعايز أروح.

- مالك؟ بتزعق ليه؟ فهمني بس عشان أكون عارفة وروّح بعدها.

- مش حاسة إن فيه حاجة غلط حصلت؟

- لأ مش حاسة، قولي طيب.

- إيه الواد اللي عمالة تضحكي معاه ده؟ ولا كأني موجود وروحتي قعدتي بعيد.

- واد؟! وانت إيه اللي يضايقك في كده؟ انت جوزي؟! خطيبي؟!

- عندك حق فعلًا، أنا لا جوزك ولا خطيبك، إحنا أصحاب وبس، وأنا اللي غلطان إني تجاوزت حدود العلاقة.. أنا آسف بجد.

- «كريم».. انت بتغير عليَّ؟

- أنا؟! لأ طبعًا وقلتلك بجد أنا آسف.

ارتباك شديد ووجه عليه ألوان الطيف جميعها.

- لأ، انت بتغير.

- ....

- «كريم».. أنا كنت عايزة أعرف حاجة بس الحمد لله عرفتها.

- عرفتي إيه؟

- عرفت إنك بتحبني وقبل ما تقول أي حاجة أنا بموت فيك.

لم ينطق «كريم» بكلمة.. كاد يفقد توازنه من السعادة.. مشاعر المراهقة السخيفة.. كلمة «بحبك» التي يحلم كل الشباب بها وأن يأتي اليوم الذي تقال فيه لهم.. لكن تلك هي المراهقة بجنونها وجموحها الشديد ومشاعرها مفرطة العنف.

رد «كريم» بعد دقيقة صمت كاملة:

- أنا مش هقولك أنا كمان بحبك عشان ده رد سخيف بالنسبة لي.. أنا هخلي كل حاجة بعملها تثبتلك الحب ده.. أنا هعيش عشانك يا «دارين».. انتي من هنا ورايح هتبقي حياتي، هتبقي حاضري ومستقبلي، هتبقي كل حاجة عندي وبس.

شديد السذاجة للأسف من يعيش حياته لأجل شخص لا لأجل نفسه.. لكنه مراهق لم ينضج بعد.. «دارين» كانت سعيدة أكثر منه.. «دارين» على الرغم من إعجاب الكثير من الشباب بها وتهافتهم عليها لينالوا ولو كلمة منها لم تعجب بأي واحد منهم على الرغم من أنهم أفضل من «كريم» ولو حتى ماديًا، ومنهم من هو أفضل اجتماعيًا أو حتى كشخصية وأخلاق.. لكن «كريم» كان نصف «دارين» الناقص الذي لم تحاول البحث عنه من الأصل، لكن قدمه لها القدر كهدية أو هبة منه.. ولكن هل هدايا القدر خالية من

السوء؟!

طوال سنوات الجامعة، عاش «كريم» مع «دارين» أجمل حالة حب في حياته.. حالة حب وليست قصة؛ فعلاقة «كريم» و«دارين» لم تكن قصة حب لذيذة بل كانت حالة.. حالة فريدة من نوعها.. روحان مسكن كل منهما في الآخر.. لم يختلفا يومًا، لم يتشاجرا أي شجار من أي نوع، لم يملّا من بعضهما ولو للحظة.. حبهما كان مميزًا، لا يعرف مكانًا للفتور، لا يعرف مكانًا للملل، كان حبًّا يتجدد يوميًّا، يتجدد كل ساعة، يُضخ في أوردة كليهما كالدم.. حبًّا لم ولن يعرفه الحب مرة أخرى.. لم تعرف كلمة «أحبك» قاموسهما، كانت كل الأفعال هي التي تثبت وتؤكد هذا الحب.. وعلى الرغم من الفارق الكبير بينهما والتباين الواضح في الحالة المادية فإن «دارين» لم تُشعره يومًا قط بهذا الفارق.. بالعكس، كانت تشعره دائمًا بالرضا والاكتفاء وأنهما واحد وليسا اثنين.. كان «كريم» لإحساسه دائمًا بالدونية يسأل «دارين»:

– انتي حبيتي فيَّ إيه؟

– انت بتشرب ميّه ليه؟

– عشان أعيش.

– تمام، أنا مش بعيش غير بيك.

– بس برضه لازم يكون فيه سبب لانجذابك ليَّ والحب ده.

– الحب مالوش أسباب يا «كريم»، مالوش وقت، مالوش سن..

الحب إحساس مالوش وصف.. بحس إنه من السذاجة إن المغنيين بيوصفوا الحب بكلام دايمًا.. الحب مالوش وصف.. الحب يتحس وبس.

- «دارين».

- إيه؟

لم ينطق بكلمة.. ضمها إلى حضنه واحتضنها بقوة.. لم يقبلها.. كان يغار عليها من شفتيه.. يريدها نقية تمامًا كما هي..

ولكن..

تعلَّم أن الحياة لن تبتسم لك دائمًا وإن ابتسمت فلن تبتسم طويلًا.. كاذب من قال إن الألم والسعادة موزعان بالتساوي في حياة المرء.. إما أنه كاذب وإما أنه عاش حياة أخرى لا علم لأحد بها، وتذكر دائمًا مقولة «طه حسين»: «الدهر قادر على أن يُفرح الناس، لكنه قادر أيضًا المقدرة نفسها على أن يؤلمهم ويذلهم ويجعلهم يمقتون الحياة».

بعد أن أنهى «كريم» دراسته، قرر السفر إلى بلد عربي ثلاث سنوات ليكوِّن نفسه؛ فهو طبيب أسنان، ومهنة كهذه في أي بلد عربي مرتبها خيالي..

يقضي هناك ثلاث سنوات، يكوِّن ثروة ثم يعود ليفتح عيادة ويشتري شقة ويعيش.. اتفق مع «دارين» على هذا، وهي من جهتها لم تمانع، بالعكس رحبت بالموضوع جدًّا.

- بص يا «كريم»، فيه شرط عشان تسافر.

- عارف من غير ما تقولي واعتبريه اتنفذ.

- طيب إيه بقى؟

- آجي البيت أخطبك من بابا عشان أضمن إن ما حدش يقرب منك.

- وانت فكرك إني هسمح لحد غيرك يقرب مني؟

نظرة حب لا توصف بالكلام.

- إمتى أقابل بابا بقى؟

- أنا هقوله النهارده وتعالى بكرة بالليل، وكده كده أنا حاكية له عنك من أول سنة في الجامعة.

- احلفي؟

- أنا ما بخبيش حاجة عن بابا.

- بس لازم تفهميه إني مش هعمل خطوبة رسمي وكده، انتي عارفة حالتي وظروفي.

- فاهمة كل حاجة ما تقلقش.

- تمام.

***

«كريم» ابن «نجوى» و«جسار» لم يعد هو «كريم» ابنهما..

«دارين» بدَّلته وجعلته إنسانًا آخر محبًّا للحياة.. إنسانًا طبيعيًّا وسويًّا.. الحب قادر على كل شيء!

جلست «دارين» مع والدها وأطلعته على كل شيء.. والد «دارين» كان يحبها جدًّا، يحبها حبًّا مميزًا دون كل أخواتها.. لا يرفض لها أي طلب.. يفرح لسعادتها ويحزن لحزنها.. «دارين» هي أقرب إنسان إليه في الحياة.. حان موعد اللقاء.. اشترى «كريم» بدلة غالية في منتهى الشياكة وذهب إلى العنوان الذي أعطته إياه «دارين».. لم تكن «دارين» تعيش في منزل، بل فيلا.. فيلا فارهة مترامية الأطراف.. دخل من البوابة الكبيرة.. ثلاث أو أربع سيارات تتصدر مقدمة الفيلا.. مساحات خضراء.. حمام سباحة.. رن «كريم» الجرس وفتحت «دارين» بفستان أحمر قصير بحمالات وكانت ملكة جمال:

– اتفضل يا دكتور.

– «دارين».. انتي عايشة هنا؟ أنا همشي يا بنتي.

شدته من ذراعه:

– ادخل يا أهبل.

دخل «كريم» وهو ينظر في كل اتجاه.. مكان لم يرَ مثله حتى في التلفاز.. استكملت «دارين»:

– تعالى معايا اقعد هنا، وبابا نازل لك.

نزل والد «دارين» من الدور الأعلى.. رجل يبدو كباشوات عصر الملك فاروق، رحمه الله.. في العقد الخامس من العمر.. له هيبة

ووقار باشا حقيقي.

– مساء الخير يا دكتور.

– مساء الخير يا عمي.

– إيه عمي دي؟! قولي يا دكتور.

– آسف يا دكتور.

– عامل إيه؟

– أنا بخير.

– بتحب «دارين» يا «كريم»؟

– أكيد بحبها حضرتك.

– طيب ليه ما تكونش طمعان فيها؟

– يا أفندم أنا ما طلبتش إني أتجوزها غير بعد ما أرجع من برّه وأكون عملت فلوس، لو أنا طمعان كنت قلتلها نتجوز دلوقتي وأهلك يساعدونا.

قالها بانفعال وصوت مرتفع قليلًا.

جاءت «دارين» بصينية عليها مشروب ناوله إياه والدها:

– اتفضل يا دكتور.

أخذ «كريم» رشفة من المشروب ثم أعاده.. وجَّه الوالد الكلام لابنته:

- شكله عصبي يا «دارين».

- لا يا بابا خالص صدقني.

- بس شكله برضه بيحبك.

- بيموت فيَّ يا بابا.

- طيب ما تتكلم يابني.

- حضرتك أنا تقريبًا قلت اللي عندي.. إحنا دلوقتي هنعمل خطوبة، وبعد سنتين أو تلاتة بالكتير أكون كوِّنت نفسي وآجي أتجوز.

- طيب اديني سبب مقنع يخليني أوافق عليك.

أخذ «كريم» رشفة أخرى من المشروب:

- ما عنديش أسباب غير إني بحب بنتك وفي نفس الوقت أنا دكتور مش عواطلي أو فاشل.

- عارف لو وافقت عليك هوافق ليه؟

- عشان بحب «دارين».

- ده سبب من الأسباب، بس فيه سبب تاني.

- ......

- انت بتفكرني بنفسي أوي وأنا قدك كده، كأني شايف نفسي بس وأنا في سنك.. لسه متخرج جديد ومفيش فلوس ولسه هكوِّن نفسي وفي نفس الوقت انت محترم، دخلت على طول البيت من بابه

وجيتلي، أبقى ظالم قدام نفسي لو رفضتك لمجرد إن ما معكش فلوس حاليًا، وأنا ما أحبش أبقى ظالم.. بس فيه حاجة برضه.. فين أهلك يا «كريم»؟

تبدلت ملامح وجهه وارتبك:

– هي «دارين» ما قالتش لحضرتك؟

– لأ ما قالتليش.

– حضرتك والدي ووالدتي متوفين في حادثة.

– الله يرحمهم.. طيب مفيش حد من أهلك جه معاك ليه؟

– حضرتك أنا والدتي كانت وحيدة مالهاش اخوات، ووالدي كان ليه أخ تاني بس أكبر منه واتوفى من زمان.

– ماشي.. لو عرفت في يوم إنك زعلتها مش هسامحك، ورد فعلي مش هيعجبك.. أظن كلامي واضح.

– مش هيحصل أبدًا أبدًا أبدًا يا عمي.

كان قلبه يرقص فرحًا.

جرت الأمور على ما يرام.. بعد شهر وجد عملًا.. ذهبت «دارين» معه إلى المطار:

– «كريم».. اسأل عليَّ دايمًا.

– ربنا يعلم إنهم هيكونوا أوحش سنتين في حياتي، بس مضطر.

احتضنها وقبّلها على جبهتها ثم ودّعها والدموع في أعينهما.

قال «كريم» لـــ«مالك» بمرارة:

– بس زي ما قلتلك، الحياة مش هتضحك لك دايمًا.

– حصل إيه؟

– اللي حصل سوّدلي حياتي أكتر من الأول.. أنا لحد دلوقتي نفسي أعرف إيه اللي حصل ومش لاقيله تفسير يريحني.

– قول.

– بعد مرور حوالي سنة ونص، «دارين» بعتتلي رسالة مكتوب فيها كلام لحد دلوقتي مش لاقيله أي تفسير.

– إيه اللي كان مكتوب؟

– حبيبي الأول والأخير «كريم».. أنا بكتبلك الرسالة دي وأنا بموت حرفيًا، بس ده المكتوب.. أنا وأهلي هنسيب مصر وهنسافر، ومش هينفع أقولك فين.. وبرضه مش هينفع أقولك أسباب.. أنا آسفة من كل قلبي، آسفة ليك وليّ وآسفة لحبنا، مع علمي التام إن الأسف هيكون مالوش أي معنى.. وحياتك عندي وانت عارف إن حياتك ووجودك هما أغلى حاجة في حياتي.. اللي حصل ده أنا ماليش أي يد فيه.. انساني يا حبيبي، انساني وما تدوَّرش عليَّ لأنك مش هتلاقيني.. انساني وأنا واثقة إنك مش هتقدر، بس حاول، ومع الوقت أكيد هتنسى.. الوقت والأيام بينسّوا.. انت بعد ما ترجع هيكون معاك فلوس.. عيش حياتك يا «كريم» حِبّ واتجوز وخلف

واعتبر إني ما كنتش أكتر من حلم، اعتبر إن «دارين» دي ما كانش ليها وجود من الأصل.. أرجوك لتالت مرة انساني، وصدقني لو انت مرتاح وسعيد أنا هحس بيك وهكون مرتاحة لراحتك.. وأمنيتي الوحيدة إني أشوفك تاني، وأكيد هشوفك.. مع السلامة يا حبيب العمر.

ظهرت على «مالك» علامات الدهشة المصحوبة بخيبة الأمل، ثم قال بأسلوب يغلب عليه الوهن:

- وعملت إيه؟

- أنا فاكر اليوم ده كويس.. يوميها كنت هتجنن، أو اتجننت بالفعل.. قريت الرسالة أكتر من عشر مرات.. افتكرتها في الأول هزار.. افتكرتها بتختبر غلاوتها في قلبي.. حاولت أوصل لها بس فشلت.. نزلت مصر بعدها على طول.. رُحت بيتهم بس لقيته اتباع.. سألت عنها أصحابها وما حدش فادني بحاجة ومن ساعتها لحد يومنا هذا ما شفتهاش تاني.

صمت تام لأكثر من خمس دقائق، ثم قال «مالك» بثقة:

- «كريم».. أنا بنسبة 75% عرفت حالتك بالظبط، وإن شاء الله هعالجك وهغيِّر حياتك.

ضحك «كريم» بسخرية.

- «كريم».. مش الجلسة الجاية دي هتكون آخر جلسة وهتكون حكيت لي كل حاجة؟

- آه.

- تمام أوي.

ناوله قرصين أخضرين:

- دول تاخدهم، واحد الصبح في اليوم اللي هتيجي فيه والتاني قبل ما تيجي بساعتين.

- إيه دول؟

- هتعرف لما تيجي.

- لأ، أعرف دلوقتي.

- دي أقراص لعلاج الاكتئاب، بس من نوع جديد شوية.

لم تكن أقراص اكتئاب كما ادعى «مالك».. كانت أقراصًا جديدة تُدعى **kenas M zeta**.

- تمام.

- آه، فيه حاجة كمان.

- هاه؟

- انت فين بيتكم القديم اللي كنت عايش فيه مع والدك ووالدتك؟ عنوانه فين؟

- فيصل، شارع البطل أحمد علاء.. بس ليه؟

- just a question، ما تاخدش في بالك.. يومين وأشوفك.

نزل «كريم» من منزل «مالك» حوالي الرابعة صباحًا وانتهى الشريط هنا.

Kenas m zeta

في مصحة الأمراض العقلية الواقعة في مدينة فيتنام بألمانيا، خرج الباحث mark parly من غرفة المريض المصاب بحالة عجز عن تشخيصها بجدية، لكنه تقريبًا أصيب بالنسيان بعدما مرَّ بحادث مؤسف ولا يعلم «مارك» جيدًا هل حقًّا أصيب بالنسيان، أو علميًّا فقد الذاكرة، أم أنه يكذب حتى لا يتذكر مأساة حادثه الذي على أثره خضع للعلاج النفسي منذ سنة وشهرين تقريبًا.. اليأس وخيبة الأمل والإحساس بالفشل تطعن «مارك»؛ فقد ظل سنة بأكملها يعمل ويحلل هذه المادة التي توصل إلى كونها مُنعشة للذاكرة المدفونة، ويجب حين يأخذ المريض تلك الأقراص أن يعجز عن الكذب وتأتيه الأحداث كشريط مسلسل يزنّ في عقله ويجبره على البوح بكل شيء.. التفكير أرّقه والإحساس بالفشل لباحث متميز في مجال أدوية علم النفس كإحساس سيدة فاضلة محترمة أجبرها الظروف على

العمل كعاهرة.. إلى هذا الحد يؤذي الفشلُ الإنسانَ المتميز!

نزل «مارك» من المستشفى، لم يقدر على القيادة، فقرر العودة إلى منزله سيرًا على قدميه اللتين وهن عظمهما تدريجيًّا مع تقدمه في السن.. مر بحانة مكتوب على واجهتها «**senior ventage**».. جلس على الكرسي مقطوع الظهر وتطلّع إلى البارمان وطلب «شوت» من الرام مضافًا إليه بعض الثلج المجروش مع قليل من الليمون.

نظر بطرف عينه دون تركيز إلى الفتاة التي بجانبه، إلا أنه لم يستطع إلا أن يلوح وجهه بالكامل نحوها.. تمتلك جسمًا رائعًا ومتناسقًا وشفتين افتقدهما كثيرًا مع زوجته التي فقدت بريقها وجمالها مع التقدم في السن والاعتياد عليها، وقدمين ناعمتين لونهما كريمي.. اشتهاها بشدة وتخيل نفسه يضاجعها الآن حتى أخرجه البارمان من شروده ونزواته:

– اتفضل.

تطلّع إليه «مارك» وشكره ورفع الكأس إلى مجرى المريء دفعة واحدة بطريقة لسعت زوره من حمضية الليمون وبرودة الثلج وحرارة الكحول.. نظر «مارك» إلى الفتاة نظرة أخيرة حتى يشبع عينيه وترك الحساب وخرج..

بعد أن أدار قفل باب منزله وأصدر الباب صريرًا يمقته، وجد «كارميلا» مستلقية على كرسي على جنبها تطالع برنامجًا عن أسماك التونة وكيفية صيدها باهتمام شديد.. حيّاها «مارك» ودخل إلى

غرفته.. تطلّع إلى الحائط ونظر إلى صوره نظرة إعجاب.. في الصورة العليا تم تكريمه لابتكاره أول مادة فعالة لعلاج الاكتئاب، والصورة التي تسكن بجوارها يوم تخرجه في الجامعة بعد أن حصل على تقدير أسطوري.. والصورة أقصى اليسار مع أصدقائه في أحد البارات احتفالًا بحصوله على شهادة الدكتوراه.. والكثير من الصور التي تؤرخ مجدًا وتفوقًا علميًّا يستحقان الفخر..

فتح اللاب توب الخاص به ونقر على **file** بعنوان **kenas M zeta**.. قرأ كل سطر بتركيز وبالتفصيل.. وفتح عدة مواقع أخرى ليراجع بعض البيانات زيادةً في التأكيد.. بعد مرور ثلاث ساعات كاملة لم يقطعها سوى صوت عواء كلبه الوفي.. صرخ «مارك» فجأة بقوة:

- كيف نسيت؟!

***

في الصباح الباكر، كان في معمل الأبحاث الذي يعمل به، يُجري أحد التحضيرات مرة ثم يطالع بعض المواقع، وقضى يومه حتى الليل في المعمل، وعلى الرغم من ذهاب كل العاملين فإنه بقي هناك حتى نام..

في اليوم التالي، ذهب إلى المستشفى للمريض الذي حاول إيجاد علاج لحالته لمدة زادت على عام..دخل غرفته وحقنه بالمادة البيضاء ساعتها وحُقن مرة أخرى في المساء، وهكذا لمدة يومين.. في اليوم الثالث دخل «مارك» عليه وعلى وجهه آيات ما بين الأمل واليأس:

- كيف حالك اليوم «هارفي»؟

- بخير.

- هل تتذكر لماذا جئت إلى هنا؟ وما سر تلك الندب التي بصدرك ووجهك؟

نظر «هارفي» لمكان الندب ثم تطلع إلى «مارك» بتعجب:

- بالطبع أتذكر، وهل هذا حدث يُنسى؟!

***

بعد عدة تجارب أخرى مماثلة، تم اعتماد **Kenas M zeta** كعلاج فعّال لحالات فقدان الذاكرة والهروب من الواقع، سواء بالكذب أو بالنسيان.. في حضرة هذه المادة العبقرية لن يستطيع أحد أن يقول سوى الحقيقة.. الحقيقة فقط..

***

في منزل «جسار» و«نجوى».. كان «كريم» بالمطبخ يأكل، لكن لأول مرة منذ طفولته، سمع «نجوى» تضحك وتمزح منتشيةً وصوت شخص معها في غرفة نومها.. ترك الطعام وتوجَّه إلى مصدر الصوت.. حاول أن يتبين من ثقب الباب مَن معها لكنه لم يكن «جسار»! «جسار» لم يكن موجودًا في المنزل من الأصل.. «نجوى» خائنة؟ «نجوى» ليست أمًّا مثالية وضحية كما يعتقد؟! تمنى أن يكون حلمًا.. تغيَّر شكل المنزل في ثوانٍ إلى منتجع سياحي.. «كريم» في الحمام يعوم ولا يوجد غيره، لا في حمام السباحة ولا حوله في أي

اتجاه.. بعدها وجد امرأة جميلة وفاتنة تلبس «كاب» ونظارة شمس يخفيان ملامحها.. نادته المرأة:

- «كريم».

تطلع حوله ثم رد باستفهام:

- أنا؟

- انت شايف حد غيرك هنا؟

لم يكن الصوت غريبًا عليه لكنه عجز عن تذكره.

- قرَّب يابني.. انت خايف مني؟

- انتي مين؟

- مش ممكن، حقيقي مش عارفني؟! كنت فاكراك لَمّاح أكتر من كده، طيب أنا هسهّلك الموضوع.

خلعت الكاب ونظارة الشمس:

- ها.. كده عرفتني؟!

وابتسمت له بحنان مصطنع.

دق قلب «كريم» ألف دقة في لحظة.. بان على وجهه رهبة وخوف شديدا الحدة.. كاد يموت من الصدمة.

- إيه يا «كريم»؟ انت خايف من ماما؟

- ......

خرجت «نجوى» من حمام السباحة في ثانية و«كريم» لا يزال في منتصفه.. أمسكت بسلك وهي تضحك بجنون:

- شايف السلك ده؟! أول ما يلمس الميّه هتموت متكهرب يا حبيب قلب ماما..

وألقت بالسلك.

***

قام مفزوعًا كالعادة من الكوابيس المقيتة التي لا تفارقه.. كان على السرير في المستشفى.. ضغط زر الاستدعاء بجانبه.. دقائق وجاءته الممرضة ومعها الطبيب المعالج:

- حمد الله على سلامتك يا دكتور.

- خلاص كده؟

- آه خلاص كده يا عم.. عارف إنك زهقت مننا، تقدر تمشي دلوقتي، فيه بس حاجات لازم نتّبعها سوا عشان حالتك ما تتدهورش تاني.. مفيش سجاير ولا كحول إطلاقًا.. مفيش أكل تقيل وكام حاجة كمان هكتبهملك في ورقة.

أسند الطبيب يده إلى الحائط ودوَّن ملاحظاته ثم أعطى الورقة لـ«كريم»:

- الممرضة بقى هتقولك على المصاريف، وأرجوك ما تهملش في اللي أنا كاتبه.

ثم خرج بعد أن أعطاه الورقة.. كرمش «كريم» الورقة وألقاها في سلة المهملات بجانبه.. أمر الممرضة بإحضار ملابس له وأعطاها مقاسه ليخرج بها:

– أول ما أروَّح هجيب فلوس أدفع المصاريف وهديكي فلوس اللبس.

– عيب يا دكتور، إحنا في الخدمة.

– هاتيها دلوقتي أرجوكي من أي محل لبس قريب.

ساعة وأتت الممرضة ببنطال وقميص.. قام «كريم» وغيَّر ملابسه ولبس الملابس التي جاءت بها الممرضة، لم تكن على مقاسه بالضبط، لكنها ليست واسعة جدًّا ولا ضيقة.. غسل أسنانه ووجهه.. نظر إلى جوار السرير.. وجد الولاعة الـ**zippo** التي أهدتها له «دينا».. وضعها في جيبه وابتسم.. خرج إلى البلكونة بحثًا عنها، لكنها لم تكن موجودة.. ذهب للممرضة:

– هي فين «دينا»؟

قالت بأسى:

– للأسف، راحت عند اللي خلقها من ساعة.. ارتاحت، ربنا يرحمها يا رب.

انهار «كريم».. وقع أرضًا من الخبر الملعون.. بكى بمرارة شديدة.. ظل ربع ساعة مُلقًى على الأرض، ووجهه بين يديه ولا يتكلم.. تدور بداخله أحاديث صامتة:

ليه «دينا» ماتت؟! بتحب الحياة وعايزاها، ليه تموت؟! وأنا اللي بشتهي الموت مش بموت! ليه كل حاجة غلط؟ ليه كل حاجة بالعكس؟ ليه الحياة ظالمة؟

أراد الانتقام بشدة، لكن ممّن سينتقم؟!

– هيدفنوها إمتى؟

– أهلها رايحين دلوقتي، هما لسه تحت.

نزل لأسفل حتى جاء أحدهم بصندوق ذهبي تتوسطه علامة صليب.. دقائق وحملوا الصندوق بما فيه ووضعوه في سيارة الجنازات المشئومة.

طلب «كريم» من أحدهم وهو لا يعرفه:

– ممكن أركب معاكم عشان ما معييش عربيتي؟

– آه طبعًا، اتفضل.

ركب «كريم» وساروا بالسيارة مدة طويلة حتى وصلوا إلى أحد الأديرة التي لا يعرفها «كريم»، وأصر عند النزول على حمل الصندوق معهم، والغريب أن أحدًا منهم لا يعرفه.. والأغرب أنه كان يبكي بشدة كأبيها وأمها.. عقل «كريم» مخدر وهو يمشي بالصندوق.. يرفض استيعاب أن هذا الملاك سيكون مكانه التراب.. كان الجو شديد الكآبة، كادت الجبال تبكي لما يحدث.. كان معهم كاهن يصلي عليها صلوات لا علم لـــ«كريم» بها والدموع تجري كسيل في عينيه.. أخرج الولاعة من جيبه وظل ينظر لها وهو يبكي..

بعد وقت وهم خارجون من المدافن استوقفه والدها:

– انت «كريم»؟

– آه.

– «دينا» حكتلي عنك، كانت بتعزك أوي.

– مش قادر أتكلم.. ومش قادر حتى أقولك ربنا يصبرك من كُتر ما اللي حصل ده مش مقنع..

خرج «كريم» إلى خارج الدير ووقف كثيرًا في حرارة الشمس حتى جاء تاكسي.

– وديني حدايق الأهرام.

– تعالى يا خواجة.

تطلع السائق الشاب إلى يده فلم يجد بها علامة الصليب:

– هو البيه نصراني؟

– يلا، ما اسمعش صوتك لحد ما توصلني، يا إما تقف وتنزلني.

– آمين يا ريس، حقك عليَّ.

وصلا فأمره «كريم» بالانتظار حتى يصعد ويجيء بالنقود.. قام السائق ووقف أمام التاكسي كزيادة اطمئنان.. صعد «كريم» للمنزل، كان الباب مغلقًا ولم يكن معه مفاتيح.. نزل إلى الطابق الأسفل، إلى شقة «مريم»، رن الجرس وفتحت له «نرمين»:

– إيه ده؟ حمد الله على سلامتك يا دكتور.

- الله يسلمك.. «مريم» فين؟

- «مريم» نزلت من الصبح وما اعرفش راحت فين.

- طيب يوم ما وقعت ودتني المستشفى ما أخدتش مفاتيحي؟

- لأ، حظك حلو.. المفاتيح جوّه عندي، كويس إن «مريم» ما خدهماش، ثواني هجيبهالك.

- هي «مريم» طلعت الشقة؟!

- يوم ما وقعت، بعد ما رجعت من المستشفى طلعت تاخد المفاتيح وتقفل الباب، عشان كانت ناسياه مفتوح.

- ماشي.

صعد إلى شقته.. أخذ حوالي ألفي جنيه والـcredit card خاصته.. نزل للسائق:

- اطلع الهرم.

- وحساب المشوار الأولاني؟

- هتاخد حسابك كامل.. اخلص.

بعد وصوله المستشفى ذهب لقسم الحسابات، دفع حسابه كاملًا وبحث عن الممرضة التي اعتنت به وأعطاها خمسمائة جنيه.. نزل للسائق حتى أعاده مرة أخرى لمنزله.

دخل «كريم» غرفته.. أخذ فوطة ودخل ليستحم بمياه باردة.. ظل حوالي ربع الساعة تحت المياه الباردة علها تبرِّد قلبه المحروق على

«دينا».. أنهى الاستحمام ولبس «شورت» وكان نصفه الأعلى عاريًا.. ذهب إلى الصالة وأشعل مكيف الهواء.. لف سيجارة حشيش وأشعلها بولاعة «دينا» التي نظر إليها بأسى وأمسك زجاجة الـــsherry التي افتقدها لأيام.. شرب كثيرًا، تقريبًا نصف الزجاجة! هذا وحده كفيل بتسمم كحولي يودي بحياته.. فقد وعيه وراح في نوم عميق.

***

الأمطار كانت شديدة تلك الليلة.. رائحة الشتاء والبرد العطرة وصلت لأنفها نظرًا لتركها النوافذ مفتوحة على الرغم من برودة الجو.. انفتحت عيناها اللتان جاهدت لجعلهما مواربتين لساعة واحدة فقط بعد صراع موحش مع الأرق الذي اجتاحها بتبجح منذ سنوات.. تتوسل إلى النوم وتحايله بكل الطرق الشرعية والممنوعة، لكنه لا يرضخ لنعاسها ويأبى الاستجابة.. كانت السادسة صباحًا حين استيقظت فعليًا.. تسللت لطرف السرير الأيسر دون أن تقف لتغلق النافذة.. نظرت بجانبها ورأت الوحدة والوحشة والخوف.. سرير خاوٍ وغرفة خاوية وبيت بأكمله خاوٍ لا يتبقى فيه سوى أمها.. حاولت النسيان وفشلت.. لا، لم تفشل.. هي لم تحاول النسيان من الأصل؛ لأنه ليس كل شيء قابلًا للنسيان وبالإمكان وضعه في خانة الذكريات.. قالت لنفسها:

– يا الله!! إيه اللي حصل؟ ازاي تم تدمير حياتي بالشكل ده؟! ازاي أنا تبقى دي آخرتي!! وحيدة ضعيفة حزينة.. أنا ازاي بقيت

كده؟!

قامت من سريرها وفتحت المكتب، مدت يدها دون أن تنظر لآخر درج، وسحبت ألبومًا صغيرًا مطويًّا يطوي سنوات سعيدة لم تكتمل.. أخذته واتجهت لسريرها.. أسندت ظهرها إلى حائط السرير وطوت قدمها اليمنى على شكل رقم ٨، واضعةً الألبوم عليها وفتحت تاريخًا لا تنساه أبدًا..

الصورة الأولى:

على النيل، التقطها لهما مصور طيب يشبه أحمد زكي في فيلم «اضحك الصورة تطلع حلوة».. السعادة والحب وروح الحياة تغمر ملامح «كريم» وملامحها.. عنفوان الشباب ونقاء رومانسيته جليّان في ملامحهما.

مع طي كل صفحة كانت ترجع أعوامًا وأعوامًا.. ترجع لأيام السعادة والهناء.. أيام الحب الحقيقي الصادق.. في كل صورة كانت ترى فيلمًا رومانسيًّا (hd) لو تم تصويره لنافس على الأوسكار ونجح بجدارة على الرغم من نهايته المأساوية!!

في الصورة الأخيرة، رأت جوابها الذي أرسلته لـــ«كريم».. نزلت دمعة حارّة بللت أحرف الجواب.. ولم ترَ في الجواب كلمات فقط، بل رأت شريط أحداث مؤسفة..

بعد لقاء والدها و«كريم» ورفض والدها، السيدة الأرستقراطية حفيدة الباشوات، حضور هذا اللقاء لاحتقارها الشديد لذلك

الصرصور عديم الجذور والأصل والأسرة والمال أيضًا، أثّرت على زوجها بشدة:

– كيف لهذا أن يتزوج ابنتنا الوحيدة؟! هو ليس في مستوانا الاجتماعي ولا الثقافي ولا حتى المادي.. كونه طبيبًا لا ينفي أبدًا كونه من عامة الناس.. ابن من هذا؟ وما نسبه؟ وما تاريخ عائلته؟ أين يعيش هذا المحتال الذي ضحك على ابنتنا وضحك عليك أيضًا؟

بعد محاولات وأسابيع من النحيب والشجار، لم تستطعِ المسكينة فعل أي شيء ولم تجد سوى كذبة الاختفاء وبيع المترل وعدم البحث عنها حتى تتهرب من «كريم» راضخة لأمر أمها.. زوّجوها شابًّا في مستواهم، أهله يمتلكون المال والنفوذ والسلطة.. تزوِّجت بعد أن تيقنت أنه لا مجال للوصال مرة أخرى مع حبيبها الأول والأخير.. أمضت مع زوجها سنتين أذاقته فيهما المر بنكهاته.. كانت تشمئز وتقشعر حين يلمسها.. بعد مضي سنتين لم يتحمل الزوج هذه الدمية الباردة التي لا تبادله الحب ولم ترضَ حتى بالإنجاب.. طلّقها بعد أن اقمها بالجنون.. واقمتها والدها أيضًا بالجنون.. لم يتفهم حالتها سوى والدها الذي توفي بعد طلاقها بفترة وجيزة بسبب الحسرة على ابنته التي انطفأت واختفى بريقها وجمالها..

وعدت السنين يا «دارين» عدت، والعمر بيجري والحزن بيزيد! فينك يا «كريم»؟ وفين أراضيك؟ يا ترى عملت إيه في حياتك؟ يا ترى بقيت إيه دلوقتي؟

«يمامة حمّلتها السلام.. لكل من أعرفهم ولكل من في الأرض لا

أعرفهم.. ولوعتي حمّلتها واسم الذي أحببته.. قلت لها: حين تعودين تعالي ومعك النسيان.. فذهبت وما رجعت وأنت ما رجعت ولا أتى النسيان..

ولا أتى النسيان»!

خرجت من غرفتها ونزلت السلم للأسفل متجهة إلى المطبخ لتروي عطشها.. بعدها وهي صاعدة مرة أخرى كانت أمها جالسة تشاهد التلفاز، ولكن لفت نظرها أنها بلا حراك.. نزلت لترى ما بها، حرَّكتها دون الحديث فسقطت أرضًا جثة هامدة..

لم يتحرك في ملامحها أي شيء، لكن يبدو أنها ابتسمت.. نعم، ابتسمت «دارين»!

* * *

عادت «مريم» للمنزل وأخبرتها «نرمين» بنبأ عودة «كريم».

– إيه ده؟ رجع إمتى؟

– لسه من كام ساعة.

– سأل عليَّ؟

قالتها وعلى وجهها علامات قلق شديد.

– آه سأل وقلتله إنك مش هنا.

– طيب بصي، ركزي معايا، لو سأل عليَّ تاني النهارده قوليله «مريم» عند أهلها، ماشي؟

– فيه إيه؟ أنا مش فاهمة حاجة.

– هفهمك كل حاجة، هنام وأصحى أحكيلك، بس نفّذي كلامي بالتفصيل.

دخلت «مريم» بسرعة إلى غرفتها، لم تغير ملابسها حتى.. الفضول كاد يقتلها، وفي الوقت نفسه عليها أن تعرف مصير «مالك» وحقيقة «كريم» والمسدس والجريمة.. وضعت آخر شريط وبدأت في الاستماع..

***

الشريط الأخير

2014/9/30

دخل «كريم» على «مالك» وعلى وجه «مالك» ابتسامة خبيثة غير مفهومة مطلقًا:

- عامل إيه يا «كريم»؟

- زي ما أنا.

- خدت الأقراص اللي قلتلك عليها؟

- آه خدها.. هي فين البنت اللي بتبقى برّه؟

- أنا مشيتها، كده كده انت آخر واحد عندي النهارده.

- طيب.

- قلتلي إن النهارده آخر جلسة، مظبوط؟

- آه زي ما قلتلك، مش هيكون فيه كلام تاني يتقال.

ضحك «مالك» ثم قال:

- لأ هيكون فيه لسه كلام كتير تاني يتقال، بس خليه مفاجأة.

- كلام إيه؟!

- هتعرف في آخر القعدة.

قال «كريم» بغضب:

- هو فيه إيه بالظبط؟

- مفيش حاجة صدقني يا «كريم»، عاملك مفاجأة.

- مش مرتاحلك.

- عيييب.

- ماشي، احكي بقى.

- بعد ما «دارين» اختفت ودوَّرت عليها في مصر كتير مالقتهاش، فقررت إني أرجع تاني لشغلي في السعودية.. قعدت هناك خمس سنين بحالهم.. ما نزلتش فيهم ولا أجازة.. بس زي ما بيقولوا «الغربة تربة».. الغريب إني ما حستش بكده.. لأني بكل بساطة ما اعرفش حد هنا، فكان بالنسبة لي هناك زي هنا، الفرق بس إن هناك كانت الفلوس عندي كتير أوي، المهم.. بعد ما عملت ملايين، قررت إني أرجع. اشتريت عربية غالية أوي وعيادة في منطقة راقية وبيت

كامل دورين.. فرشته أحسن فرش وكان أشبه بالقصر.. عشت الحياة بالطول والعرض والارتفاع كمان.. ما حرمتش نفسي من حاجة.. ما كنتش بشتري غير أغلى الماركات، كنت بحاول أختار أغلى حاجة حتى لو ما تستاهلش.. نضارات أوريجينال، ساعات أوريجينال، كل حاجة في حياتي بقت أوريجينال.. كنت بحاول أعوَّض أيام التعب والشقا.. والغريب إن الفلوس كانت بتزيد كل ما أصرف أكتر.. العيادة بقت مشهورة واسم «كريم جسار» سمَّع أوي..

أنضف وأرقى ناس كانت بتجيلي، والحجز كان بيبقى قبلها بأسبوع، والعيادة كانت في الزمالك، يعني منطقة راقية وناس أرقى.. كانت بتيجي ستات كتير العيادة وأنا كنت قمة في الشياكة وأعجب أي واحدة.. المهم، قررت أتجوز! قلت بيت وزوجة وأولاد، وأنا بصراحة كان نفسي في ابن أوي أعيّشه أحلى عيشة وأديله كل اللي اتحرمت منه وأنا طفل، بالذات الحرمان العاطفي أكتر من المادي.. بس يوم ما قررت أتجوز ده كان بالنسبة لي حاجة زي ما تقول كده ضرورية عشان كبرت، إنما أنا كنت عامل حسابي إن مراتي دي لا هحبها ولا هكرهها، هتكون مشاعري حيادية تمامًا من ناحيتها، ومع الوقت هتعوّد عليها؛ لأني ما حبتش ولا هحب بعد «دارين».. وبرضه زي ما قلتلك، كان لازم ابن يشيل اسمي وياخد ثروتي بعد عمر طويل.. ويشاء القدر إني ما اتعبش نفسي في البحث عن واحدة عشان أرتبط بيها، هي اللي جتلي لحد العيادة!

«كاميليا».. 27 سنة.. خريجة لغات وترجمة في إحدى الجامعات

الخاصة.. شديدة الجمال.. ناعمة ودلوعة، لكن برقي شديد.. كانت تأتي العيادة مرة كل شهر دائمًا لعمل تبييض لأسنانها.. كانت تلفت نظر «كريم» دائمًا بخفة ظلها وطلّتها المبهجة ولغتها المنمقة.. في هذه المرة جرت الأمور بطريقة مختلفة حين أتته العيادة..

– مساء الخير يا دكتور «كريم».

– مساء النور.. «كاميليا» على ما أتذكر؟

– آه «كاميليا» على ما تتذكر.

– هههه سوري بجد، بييجي كل يوم ناس كتير فبنسى الأسماء.

– بس أنا المفروض إني ما اتنسيش يا دكتور، ده أنا بعمل كل شهر bleaching غالي أوي.

– لأ ازاي؟! مش شايف في إيديكي دبلة، هي الرجالة اتعمت ولا إيه؟!

فتحت عينيها الزرقاوين وضمت شفتيها:

– انت جايبلي عريس؟!

– لا بتكلم جد، انتي مرتبطة أو مخطوبة؟

– لحد دلوقتي لأ.

– طيب بصي بقى يا «كاميليا».. أنا ما بحبش اللف والدوران الكتير.. أنا معجب بيكي من أول يوم جيتي فيه هنا، وبصراحة كنت عايز أتعرف عليكي كذا مرة أو أقابلك، بس الظروف ما سمحتش..

فإيه رأيك نتقابل مرة ونشوف هنرتاح لبعض ولا لأ؟

- وش كده؟!

لم يكن أي حرف مما قاله «كريم» حقيقيًّا.. هي فقط أكثر فتاة جميلة جاءته العيادة وأكثرهن رقيًّا، فلم يجد سواها.. إنما ما قاله كان لتقصير المسافات وإيهامها بأنه يحبها حتى تجري الأمور بسرعة.. «كريم» لم يكن قادرًا أو عنده طاقة ليعيش مغامرات وأحاسيس المراهقة التي عاشها مع «دارين» مرة أخرى.. نضج وكبر وزاد عقلًا.

- فكّري براحتك، بس ما تتأخريش عليَّ.

كانت «كاميليا» في شدة السعادة، لكنها حاولت إخفاء ذلك حتى لا يشعر «كريم» بأنها أقل مما كان في نظره.. احتفظت بثقل النساء لآخر لحظة.. و«كريم» في نظرها عريس لا يُرفض؛ وسيم وغني وطبيب وراقٍ في التعامل، هو كامل تقريبًا.

- طيب مش هتعملي الـ**bleaching** بقى؟!

***

جرت الأمور سريعًا.. مكالمات باهتة بها مشاعر وأحاسيس حقيقية من ناحية «كاميليا»، لكنها مصطنعة من ناحية «كريم».. حتى تقابلا في أحد الكافيهات:

- تشربي إيه؟

- عصير بطيخ.

نادى «كريم» على الـwaiter:

- واحد عصير بطيخ وعصير فراولة.. «كاميليا»، انتي بنت كويسة جدًّا وبنت ناس وأنا حكتلك كل حاجة عني.

- لأ على فكرة، إحنا نص المكالمات كنت أنا بحكيلك عن نفسي بس، لكن انت، أنا ما عرفتش عنك حاجة.

- عايزة تعرفي إيه؟

- كنت مرتبط قبل كده يا «كريم»؟

- لأ، أنا خلصت كلية وسافرت كام سنة عملت فيهم فلوس وجيت فتحت عيادة.. والدي ووالدتي اتوفوا في حادثة من كام سنة وأنا طلعت سليم.

- مالكش اخوات؟

- لأ، أنا وحيد.

حواراتهما كانت تنقصها الروح دائمًا.. روح الحب وروح الحياة.. على الرغم من أن «كاميليا» لم تكن مغرورة أو متكبرة فإن «كريم» لم يحبها ولم يستسغها.. تعوَّد عليها فقط.. لكل إنسان صورة تنعكس في مرآة روح الشخص الآخر.. إلا أن مرآة روح «كريم» عجزت عن التقاط أي صورة أو حتى ظل لروح «كاميليا».. لم تنعكس صورتها في مرآة روحه يومًا، على الرغم من أن صورته انعكست في مرآة روحها من أول لقاء! لكن هذه هي الحياة..

مش عشان حد بيحبني لازم أكون أنا كمان بحبه، ومش عشان

شخص بيكرهني لازم أكون أنا كمان بكرهه..

جرت الأمور ببساطة، وطلب «كريم» من والد «كاميليا» الارتباط بها رسميًّا.. أهداها شبكة غالية وعمل لها فرحًا كأفراح أبناء الوزراء.. قضيا أيامًا حلوة معًا، وبعد سنة أنجبت «كاميليا» الابن المنتظر الذي كان يريده «كريم».. سماه «شريف».

من اللحظات السعيدة القليلة في حياة «كريم» تلك اللحظة التي أصبح فيها أبًا لجزء منه.. صورة مصغرة من كيانه.. أقسم أن يكون «شريف» أسعد طفل في العالم.. سيكون «شريف» أكثر طفل مرفه، لن يجعل عنده وقتًا أو مجالًا ليتمنى أو يحلم بشيء..

سيكون كل شيء عنده دون حتى أن يفكر في طلبه.. سيحقق له ما لا علم له به.. ومع مرور الوقت والسنوات، اعتاد «كريم» على «كاميليا» واستمرت الحياة باسمة وجميلة لـــ«كريم» و«كاميليا»..

الساحل الشمالي.. على البحر

أتم «شريف» سبع سنوات، يلعب على الرمال و«كريم» و«كاميليا» جالسان بجانبه.

– مش نازلة البحر؟

– لا يا حبيبي، انزل انت و«شريف».

– يلا يا «شريف»، هعلمك تعوم.

– ماشي يا «كريم».

– «كريم» كده بس؟! مفيش بابا، دكتور، أي حاجة طيب.

– لأ، هو «كريم» بس.

– ماشي يا دكتور «شريف»، اتفضل يا أفندم.

التقطه وحمله على ذراعه وقبّله كما يفعل دائمًا؛ فحب «كريم»

لـ«شريف» كان أشبه بحبه لـ«دارين».

قضيا وقتًا ممتعًا و«كاميليا» مستلقية تنظر إليهما بفرح وهي تقرأ إحدى الروايات المترجمة.

في مساء ذلك اليوم، قرروا الخروج لأحد المطاعم المشهورة.

– «كاميليا»، أنا عايز آكل أي حاجة مشوية.

– أعرف مكان حلو أوي هنا.

– ماشي، يلا البسي وأنا واقف عند العربية أنا و«شريف».

خرج «كريم» مع «شريف» إلى السيارة.. انتظرا ربع ساعة حتى جاءت «كاميليا».. لم يشعل ولا سيجارة على غير العادة.. «كريم» تقريبًا أقلع عن التدخين منذ ولادة «شريف» الذي كرّس حياته لأجله؛ لذا يجب أن يكون بكامل صحته، ولا مانع من سيجارة واحدة في اليوم، لن تضر.. تأمل «كريم» حاله منذ سنوات وحاله الآن.. قارن وأحس بلذة في المقارنة.. تبدَّل «كريم» كثيرًا، كل شيء فيه تبدَّل، حتى شخصيته؛ لم يعد كئيبًا كما كان.. أصبح بشوشًا ومحبًّا للحياة، ومع الوقت أيضًا تناسى «دارين» التي كانت تجيء في باله مرات قليلة.. هذه هي الحياة! الوقت قادر على أن ينسينا أسماءنا حتى.. جاءت «كاميليا»، ركبوا معًا واتجهوا إلى المطعم.

– «كاميليا» حبيبتي، عايز أسألك سؤال، بس الإجابة تكون بصراحة.

– اسأل يا «أبو شريف».

– انتي حبيتي قبل ما تتجوزيني؟

– هههههه.. عارف إني استغربت لأنك لما جيت تتقدملي وطول فترة تعارفنا عمرك ما سألتني السؤال ده؟

– واديني سألته.

– أكيد حبيت، وأكتر من مرة كمان.

– طيب ليه العلاقات دي ما كملتش؟

– لأنه فيه فرق كبير أوي بين علاقات الحب العابرة بتاعة فترة الشباب وبين العلاقات الحقيقية.. مش كل حب أو إعجاب في الفترة دي كان حقيقي؛ فعشان كده ولا علاقة استمرت.. انت بقى حبيت قبل كده؟

– لأ.

عندما وصلوا إلى المكان كان منظره جميلًا حقًّا.. كان مطلًّا على البحر والإضاءة خافتة ومريحة للعين.. أغلب الأماكن كان يجلس عليها أُسَر.. إلا ترابيزة واحدة كان يجلس عليها شاب وصديقته وكانا جميلين حقًّا.

– «كريم».. تعالى نقعد هنا قريب من البحر.

– يلا يا «شري».

نادى «كريم» على العامل وطلب الأكل.. نصف ساعة وجاء العامل بالطعام الذي كان شديد اللذة.. أكلوا جميعًا بشراهة ونِفس

مفتوحة.

بعد أن أنهوا الطعام طلب «كريم» عصيرًا للصغير وزجاجتي بيرة.. انتهوا من الشرب وكان وقتًا لطيفًا.. دفع الحساب واتجه للسيارة وكانت «كاميليا» ثملة قليلًا من آثار الكحول.

– أول مرة ألاقي حد يدوخ من البيرة!

– مش واخدة عليها، انت عارف.

– عايزين نعمل اجتماع مصيري لما نروَّح يا «كيمو».

– ده أساسي طبعًا.

قالتها بدلال وإغراء لا يقاوم.

***

حينما وصلوا إلى المنزل، أخذ «كريم» حمامًا باردًا كالعادة؛ نظرًا لحرارة جسمه التي لا تبرد أبدًا، و«كاميليا» هي الأخرى، ودخل «كريم» إلى غرفة النوم بعد أن حضن «شريف» وقبَّله..

«كريم» ينتظر على السرير على أحر من الجمر في انتظار **kathren heigl** المصرية.. على الرغم من أن «كريم» لم يحب «كاميليا» يومًا فإنه كان يعشقها حين يتعلق الموضوع بغرفة النوم.. فنانة في غرفة النوم، فنانة محترفة.. ممتعة ومدرَّبة أكثر من أفضل عاهرة.. حاصلة على دكتوراه في فنون الجنس.. تمتلك حوالي ألف قميص نوم بمختلف الألوان والأشكال.. كل مرة كان ينام معها كانت تتقمص شخصية جديدة وكأنه أمام امرأة أخرى في كل مرة..

في هذه المرة كان الـstyle «شعبي».. لا مانع من التجديد مع هذه المحترفة.. لها طرق في الإغراء لا تعرفها أفضل ممثلات البورنو.. قضت معه عشرين دقيقة من المتعة التي لا يعكرها أي شيء.. بعد أن انتهيا وضعت رأسها على فخذيه بحيث يكون وجهها أسفل وجهه وقدماها العاريتان عن يمينه.. مال «كريم» عليها وقبَّلها ثم أشعل سيجارة.. أخذها منه وأخذت نفسًا ثم ناولتها إياه مرة أخرى..

- «كريم».. هو ليه كل مرة بعض ما بنخلص أساسي تولع سيجارة؟!

ابتسم «كريم»:

- بهدي نفسي شوية، وزي ما تقولي تعوُّد.

قبّلها مرة أخرى وأطفأ الأنوار وخلدا إلى النوم..

في الصباح، قررا العودة.. بعد أن استيقظ «كريم» أيقظ زوجته وهمّا بتحضير الشنط.. ذهبت «كاميليا» لتوقظ «شريف»، لكن كانت هناك مصيبة! «شريف» درجة حرارته مرتفعة جدًّا ولا يقوى على الحركة.. فزعت وصرخت ثم نادت «كريم» الذي جاء مفزوعًا هو الآخر.

- «شريف» سخن مولع.

- يا نهار اسود، هاتيه هاتيه.

حمله بسرعة وتوجه إلى سيارته، كانت الساعة حوالي السابعة صباحًا.. «كاميليا» تبكي بكاءً أربك تفكيره:

- ابني هيجراله حاجة.

هزها بشدة:

- مفيش حاجة، هو بس مش فايق من السخونية.

أدار السيارة ووضع «شريف» بجانبه وترك «كاميليا».. ضغط على دواسة البنزين كالمخبول.. كان يجري بسرعة شديدة يبحث عن مستشفى حتى صدم سيارة أخرى بشدة:

- يلعن أبو أم كده.

نزل الرجل من سيارته، كان كبيرًا في السن:

- إيه التخلف والهمجية دي؟ حد يمشي كده في مكان زي ده؟

- أنا آسف والله، ابني جنبي مولّع وخايف يجراله حاجة وبدوّر على مستشفى.

كان رجلًا محترمًا حقًّا.. قدَّر حالته ووضع نفسه مكانه وتخَيَّل حفيده في هذا الموقف.. قمة الرقي!

- ماشي يابني، تعالى ورايا وأنا هوصلك.

ما إن وصلوا إلى المستشفى حتى بدأ «كريم» في الشجار معهم حين علم بعدم وجود طبيب الآن.. حينما علا صوته وسبابه جاء طبيب أطفال بعد حوالي ساعة.. لم يعتذر ولم يعقّب، صعد إلى غرفته وأمر «كريم» بالانتظار بعد أن أخذ الممرضون الطفل إليه..

أسوأ ساعة في حياة «كريم» مرت عليه.. الانتظار والقلق يقتلانه

ببطء.. لم يتركه الرجل العجوز الذي يبدو عليه الوقار.. حاول تهدئته:

- يابني أنا مقدر قلقك على ابنك وصدقني مش هيفيد، اللي ربنا كاتبه هيكون، وأكيد هيكون خير؛ لأن ربك عمره ما بيجيب شر أبدًا، استهدى بالله كده وبإذن الله يكون بخير.

- يا رب، يا رب..

ثم انهار «كريم» في البكاء.

احتضنه العجوز كأنه أبوه.. كان ذا خلق فعلًا:

- يابني ما تعيطش وتوجع قلبي، ده أنا اللي المفروض أعيط على العربية.

قالها بحس الدعابة، لكن «كريم» لم يبتسم، ثم استكمل:

- اهدا كده وجرب، قوم صلي لربنا وادعي لابنك وأكيد هيبقى كويس، خلي عندك إيمان بالله والخير هيحصل..

هدأ «كريم» قليلًا وأحس براحة لأول مرة يحسها من كلام الرجل.. استجاب لكلام العجوز ودخل غرفة وصلى من قلبه.. لم تكن صلاة، كان دعاء فقط؛ فـ«كريم» لا يعرف كيف يصلي من الأصل، أو بمعنى أصح لم يصلِّ في حياته من قبلُ.. فدعا فقط وأحس براحة في الدعاء..

مرت ساعتان والطبيب لم يرد على «كريم» ولم يرَه.. كان الوقت لا يمر.. ما أقبح الانتظار! شيء ممل وساذج وبالٍ ومستفز جدًّا..

وأصعب انتظار في الحياة هو انتظار ما لم ولن يأتِ أبدًا؛ فهو يشبه الحب بلا أمل.. قد يكون الانتظار بالساعات أو السنين أو الأيام، وجميعه سيئ بلا استثناء.. فكرة الانتظار في حد ذاتها قاتلة وحارقة للدم وللأعصاب، سواء انتظار الحلو أو الرديء..

في التاسعة، كانت «كاميليا» بالمستشفى تنهار قلقًا، وفي العاشرة جاء الطبيب وطمأنهما بأنه مجرد دور سخونة عادي جدًّا ولا داعي لأي قلق:

– الولد زي الفل، وكام ساعة كده ويقدر يروح معاكو، وأنا هكتبلكوا على كام حاجة تودي السخونة دي.

ارتاح «كريم» وهدأ وطار قلب «كاميليا» من السعادة.. شكر «كريم» العجوز بحرارة:

– مش عارف أقول إيه لحضرتك، بجد متشكر جدًّا وتكاليف تصليح العربية كلها عندي.

– عيب يابني اللي بتقوله ده، الحمد لله إنكوا اطمنتوا عليه.. شفت؟ لما تدعي من قلبك وزي ما قلتلك ربك ما بيجيبش غير الخير وبس.

– بجد مش عارف أقولك إيه، بس برضه تكاليف تصليح العربية عندي.

– مع السلامة يابني.

تركه ومشى دون أن يسمع ما قاله.. بعد ست ساعات، عاد

«شريف» مع والديه إلى المترل بعد أن انهالا عليه أحضانًا وتقبيلًا..
ظلوا حتى المساء في الشاليه، وفي الصباح، بعد أن تحسن «شريف» قليلًا، جهزوا كل شيء ووضعوه بالسيارة واستعدوا للسفر..

في منتصف الطريق، كان «كريم» يمشي على سرعة معقولة، لم يكن يجري..

سيارة نصف نقل خارجة من الصحراء بسرعة صدمتهم!! انقلبت سيارة «كريم» أربع مرات.. انفتحت كل الوسائد الهوائية والسيارة أصبحت صفيحة..

***

بعد يومين، فتح عينيه في المستشفى وكان مُلقى على سرير قدمه اليسرى مكسورة وذراعه اليسرى أيضًا مكسورة، وجسمه كله به كدمات.. «كاميليا» هي الأخرى كانت حالتها أشبه بحالته..

بعد أن أفاق، جاء الطبيب له، بعد أن أخبرته الممرضة:

– حمد الله على سلامتك، انت اتكتبلك عمر جديد، دي معجزة إنك لسه عايش بمعنى الكلمة.

قال بصعوبة:

– «شريف» جراله إيه؟

– المدام زيك تقريبًا وبخير.

– بقولك «شريف»، الولد الصغير اللي كان معانا.

لم يعقب الطبيب، خرج من الغرفة صامتًا.. استوقف «كريم» الممرضة:

- «شريف» جراله إيه؟

ردت بصوت منخفض على مضض:

- البقاء لله.. ربنا يصبركم، والحمد لله إنكم لسه عايشين.

لم يبكِ ولم ينهَر.. صمت تام ومؤلم.. صمت دام ثلاثة أشهر، حتى بعد أن قام من المستشفى هو و«كاميليا»، ورفض أن يعمل عزاء لابنه..

«كريم» أصبح غامضًا جدًّا.. غير مريح وغير مفهوم.. صامتًا دائمًا لا يتحرك.. دائم الشرود.. أصبح مسخًا بمعنى الكلمة.. لا يُبدي أي رد فعل لأي شيء.. لا يترل عيادته.. دائم الصمت.. يجلس إلى كرسي في غرفته يدخن ويكلم نفسه بصوت منخفض ويضرب كفًّا بكف فقط.. حاولت «كاميليا» بعد أن تقبلت الحقيقة أن تهدئه وتقنعه بفكرة إنجاب طفل آخر؛ فهذا قضاء الله، وإن أنجبا طفلًا أخر سيعوضهما بالتأكيد عن غياب «شريف»، لكن «كريم» كان شبه ميت، هو فقط يتحرك بجسده فقط، لكن روحه قد ماتت.. بعد مضي سنة من العزلة صبرت فيها «كاميليا» عليه ولم تتذمر يومًا وقدرت حزنه، بدأ «كريم» في استعادة الحياة تدريجيًّا.. يترل عمله من آن لآخر.. يتكلم معها أحيانًا.. سعدت «كاميليا» جدًّا لعودة زوجها لها، لكن «كريم» دائمًا كان به شيء غير مفهوم، ولم تستطِع فهمه، وطوال هذه المدة لم يلمسها «كريم» ولا مرة..

بعد فترة، جاءته «كاميليا» ببشرى سارة تنسيه همومه وتعيد له روحه:

– «كريم».. عندي ليك خبر حلو هيخليك طاير.

رد ببرود:

– إيه؟!

– أنا حامل يا حبيبي.

نزل الخبر عليه كصاعقة.. تبدلت ملامحه تمامًا، ولأول مرة منذ وفاة «شريف» يبدي رد فعل قويًا:

– حامل؟! حامل ازاي؟!

– يعني إيه حامل ازاي؟ مش فاهمة!

– أنا ما لمستكيش ولا مرة بقالي سنة، يبقى ازاي حامل؟

– إيه اللي بتقوله ده؟ انت اتجننت خلاص، تقصد إيه بكلامك ده؟

ابتسم «كريم» وعقّب ببرود:

– ما أقصدش حاجة يا حبيبتي، أنا اتاخدت من الخبر بس.

– اتاخدت يعني إيه؟ ده بدل ما تفرح!

– لا، أنا فرحان، يلا ننام دلوقتي والصبح نشوف الموضوع ده.

دخلت للنوم وهي قلقة وحزينة وهو يغلي.. تذكر جيدًا وأيقن أنه

لم يلمسها منذ يوم وفاة حبيبه.. انتظر حتى نامت وفتح هاتفها.. بحث في سجل مكالماتها ووجد مكالمة مدتها ساعة وعدة دقائق مع رقم مسمى باسم «ريم».. مَن «ريم»؟! هو يعرف كل صديقاتها.. اتصل بالرقم، سمع صوت رجل، أو هكذا خُيِّل إليه! تأكد من خيانتها، وعندما أغلق الخط وقلب مرة أخرى وجد مكالمات كثيرة مع الرقم نفسه.. لم يفكر ولم يعطِ نفسه أي فرصة للتفكير أو بحث الموضوع..

استشاط غضبًا وشيطانه قال له: خائنة نجسة تستحق القتل.. انتقم لنفسك ولشرفك.. هي رخيصة جدًّا ولم تقدِّر حزنك على وفاة ابنكما..

في الرابعة صباحًا، صعقها بالصاعق في رأسها لمدة دقيقة حتى سال لعابها وتأكد أنها فقدت الوعي.. ذهب إلى سلالم العمارة ليتيقن من أنه لا أحد ما زال مستيقظًا.. وعندما وجد الجو آمنًا، حملها بصعوبة حتى السيارة، حملها إلى شنطة السيارة وذهب بسرعة إلى طريق إسكندرية الصحراوي بالقرب من أحد المولات، لكن على الجانب الآخر من الطريق.. دخل إلى الصحراء وأصبح في مكان موحش ومظلم، بعيدًا عن العيون، لكن لافتة للإعلانات كانت تضيء إضاءة خافتة تسمح بالرؤية.. أخرجها من شنطة السيارة وبدأت في استرداد وعيها تدريجيًّا.. ألقاها وسط الرمال وهو يصرخ بأعلى صوت:

- عايزة تلبسيني عيل مش ابني يا زانية يا بنت الكلاب؟ أنا عملتلك إيه؟ بس أنا هعرف آخد حقي.

استردت وعيها تمامًا من صوته المرتفع، وما إن ادركت ما حولها

حتى صرخت وهي تبكي:

– والله ده ابنك، ورحمة ابننا ده ابنك، أنا ما خونتكش، والله العظيم ده ابنك.. «كريم» اعقل وفوق أرجوك أرجوك.

قالتها بأنين وهي تبكي.. كان صوتها واهنًا جدًّا.

لم يكن «كريم» في حالته الطبيعية ولم يحاول التفكير فيما قالت.. ضربها بعصا «الكوريك» في رأسها ضربة أسكتتها تمامًا.. حفر في الرمال بالعصا لمدة طويلة حتى صنع حفرة.. ألقاها فيها وغطاها بالرمال.

الثانية ظهرًا

وقفت السكرتيرة ثواني أمام مرآة مجاورة للباب تعدِّل من وضع خصلة في شعرها ضلّت طريقها بشكل مؤسف ثم أزاحت الـ«تي شيرت» قليلًا لأسفل لتحاول إظهار مفرق صدرها الذي غلّفه الـpush up ونقرت الباب نقرتين هامّةً بالدخول:

- صباح الخير يا مستر «كمال».

- صباح النور يا «مي».. تعالي.

- حضرتك فيه مشكلة حصلت مع الفوج بتاع دهب واتصلوا بيشتكوا.

- مشكلة إيه؟ وازاي تحصل مشكلة في شركة كبيرة زي شركة الكمال؟!

- حضرتك في الفندق كا...

رن هاتف «كمال» فقاطعها لتصمت، ثم رد بابتسامة:

– «كريييم».. توَّك ما افتكرت تسأل عليَّ، ما سمعتش صوتك بقالي فترة.

– صباح الخير يا عمّي.. والله انت عارف حالتي النفسية تعبانة من ساعة اللي حصل، ربنا يعلم باللي فيَّ

– لا حول ولا قوة إلا بالله، ربنا يصبرك ويصبرني يابني، بس إرادته، هنعمل إيه؟ سيبك انت، أنا «كاميليا» فرَّحتني وقالتلي خبر هيفرحك أوي.. هي حكتلك ولا لسه؟

– أنا كنت بكلمك عشان «كاميليا»، هي ما جتش عندكوا البيت؟ أنا كنت فاكرها هناك!

– ليه؟ هي مش في البيت؟!

– لأ، صحيت ما لقتهاش وسايبة موبايلها ومش عارف أوصلها، فاتصلت بيك، افتكرها في البيت.

– أنا لما نزلت ما كانتش موجودة! خليك معايا دقيقة أكلم البيت وأشوفها، يمكن تكون هناك.. دقيقة.

ستون ثانية حاول فيها «كريم» قدر الإمكان الإبقاء على ثبات أعصابه وترتيب كلامه وتنظيمه بعناية حتى لا ينفضح أمره أو ينطق بما يثير الريبة.. لم ينَم منذ لحظة دفنها.. ظل مستيقظًا يفكر ويفكر في حل ينجو به من فعلته.. منظرها وهي تبكي وتحتضر ذليلة يتراءى أمامه.. تردد لحظة وشرد بعيدًا.. نعم لقد قالها، لكنه قاطعه.. «سيبك

انت، (كاميليا) فرّحتني وقالتلي خبر هيفرحك أوي».. رنّت الجملة في أذنيه مرة أخرى.. إلى هذا الحد وصلت بها الوقاحة؟! تخبر والدها بحفيد أصله الزنا؟! وقحة حقًّا، تستحق الموت ألف مرة كما استحقته الأخرى!

– «كريم»، انت معايا؟ «كريييم».

أفاق من شروده:

– معاك يا عمي.

– مامتها بتقول ما جتش البيت، هتكون راحت فين؟ انت قلقتني كده.

– لا مفيش قلق، هي شوية وتيجي، جايز نزلت تجيب حاجة ونسيت تليفونها، أنا قلقتك ع الفاضي.

– طيب أول لما توصل كلمني طمني.

– تمام.

انقضى اليوم بعد عناء وبكاء وبلاغات في أقسام الشرطة، إضافة إلى بحث في المستشفيات.. في اليوم التالي كان ضابط شاب في منزل «كريم» يحاول تهدئة والد «كاميليا» ووالدتها و«كريم» أيضًا، الذي حاول قدر استطاعته أن يفتعل الذعر والقلق..

– دكتور «كريم».. إيه اللي حصل امبارح؟

– أنا صحيت من النوم ما لقتهاش في البيت، استنيت ساعة كده،

بعد كده لقيتها سايبة تليفونها فكلمت والدها افتكرها هناك...

قاطعه:

- لأ مش امبارح.. ليلتها.

- ليلتها ما حصلش حاجة.

- خالص؟!

- حاجة زي إيه؟ مش فاهمك!

ارتبك «كريم» نسبيًّا.. القاتل مهما حاول الإبقاء على ثباته فهو دائمًا مهزوز.

- اتخانقتوا؟ حصل مشكلة؟

- إطلاقًا، حضرتك اسأل والدها، أنا و«كاميليا» متفاهمين ومفيش بينّا أي مشاكل.

- طيب.. ده الكارت بتاعي، لو عرفت حاجة كلّمني.. أنا هكمل كلام مع والدها وهعمل كام حاجة.

نظر «كريم» للكارت وكان اسم الضابط «هشام حماد».

استمرت التحقيقات فترة قاربت الشهر وباءت بالفشل.. لم يستطِع «هشام» الوصول لشيء على الرغم من شكه الشديد في «كريم»، خاصة بعدما أخبره والد «كاميليا» أن «كريم» أصبح غير سوي بعد موت «شريف».. لكن «هشام» لم ينسَ «كريم» لحظة!

* * *

قال «مالك» بفزع وصدمة:

– أنا مش مصدق، عمري ما كنت أتوقع إن مرضك كان وصل للمرحلة دي، حقيقي مش مصدق إنك قتلتها.

– لو انت كنت مكاني ومراتك خانتك كنت هتعمل كده.

– كل المجرمين بيقولوا كده، بس ده برضه إذا كانت هي خانتك، وأنا واثق إنه ما حصلش.

– وعرفت منين إنه ما حصلش؟

– هقولك عرفت منين بس مش دلوقتي.. مش خايف أبلغ عنك؟

ابتسم «كريم» ابتسامة ماكرة توحي بتوخي الحذر:

– ما اعتقدش، انت أجبن من إنك تعمل كده.

لم ينتظر «مالك»..داهمه بسرعة حتى يفقد تركيزه وينفعل:

– مش أنا كنت عاملك مفاجأة قلتلك هقولك عليها النهارده؟

– وأنا مستنيها.

– «كريم».. كنت قلتلي إن أبوك هو اللي قتل أمك، مظبوط؟!

تغيَّرت ملامح وجهه:

– آه مظبوط.

– سبحان الله يا أخي! ده ازاي ده؟! قتلها وهو أصلًا ميت! أنا اللي سمعته بقى إن أبوك مات قبل أمك بسنتين وبنفس الطريقة اللي

حكتلي إن أمك هي اللي ماتت بيها.

- ....

- مش أنا رحت بيتكم؟ أُمال واخد منك العنوان ليه؟ رحت الصبح، هي دي المفاجأة اللي محضرهالك، وسألت وعرفت كل حاجة.

- ....

- طيب ده معناه إيه بقى؟! أبوك وأمك ماتوا بنفس الطريقة وانت قلت إن أبوك هو اللي قتل أمك وبعدها اختفى وما شفتوش تاني، وهو أصلًا طلع مات قبلها بسنتين وبنفس الطريقة.. طيب كده مين اللي قتل أمك؟

- تفتكر مين يا دكتور؟

- ما دام كدبت يبقى أكيد انت، وأنا واثق إن الكوابيس اللي بتجيلك دي بتشوف فيها أبوك وأمك وهما بيحاولوا يقتلوك.

- بجد بجد أنا فخور بيك، انت دكتور متميز.

- مش ناقص غير الأسباب.. قتلتهم ليه يا «كريم»؟ وكدبت عليَّ ليه من الأول؟

- والله مانا مزعلك، ما انت عرفت كل حاجة، يبقى ما جتش بقى على الأسباب..

أمي زي ما حكيتلك، كانت ست مسكينة أوي، وكان أبويا

موريها الويل، أنا وهي، مش هي بس على فكرة.. راجل مدمن وشمام وما بيعملش أي حاجة عدلة في حياته غير إنه يضرنا وبس ويمد إيده عليَّ وعليها.. وفي يوم اسود عليه جاب واحدة البيت وأمي ساعتها ما كانتش موجودة وفضل هو و هى يقلوا أدبهم عليَّ وكانوا سكرانين.. أمي بعد ما رجعت كان لسه هو والبنت اللي كانت معاه موجودين..

بكل برود مشّى البنت.. لما أمي حاولت تتخانق معاه ضربها جامد أوي، ولما جيت أدافع عنها ضربني أنا كمان.. يوميها كنت أنا وأمي جبنا آخرنا بمعنى الكلمة، فاتفقنا عليه وقررنا نعاقبه.. نخدره ونرميه من الشباك والحادثة هتتأيد على إنها انتحار لما يسمعوا أقوالنا ويعرفوا إنه مدمن ويلاقوا آثار المخدرات في دمه، هنبقى إحنا في السليم.. وبالفعل حصل كل حاجة زي ما رتبنا وارتحنا منه خالص..

سنتين واحنا عايشين حلو.. وأمي ست حلوة أوي وجميلة وألف عين عليها..

ناس كتير طلبوا إيدها بس هي ما كانتش بتوافق، ده على حد علمي، يا عالِم كانت بتعمل إيه من ورايا.. المهم، في آخر فترة لقيتها بتتكلم كتير في التليفون ودلع ومياصة مع حد ما اعرفش هو مين.. جه في دماغي إنه ممكن يكون عريس وجاي يتجوزها، ولو ده حصل أنا ما كنتش هقبل، بس لو حصل وهي صممت على ده كنت هقبل بالأمر الواقع وخلاص.. المهم، بعد فترة جيت البيت بالليل ولقيت صوت في أوضة النوم.

كان صوت الراجل اللي بيكلمها في التليفون.. يوميها عملت نفسي ما اعرفش حاجة وكتمت على الخبر خالص عشان أفكر كويس وأعرف أربيها ازاي.. في اليوم ده قلتلها إني مسافر أنا وواحد ابن جارتنا إسكندرية؛ بحيث يبقى قدام كل الناس أنا ما كنتش في البيت، وبالفعل حصل، سافرنا بالنهار أنا والواد ده، وعلى واحدة بالليل رجعت مصر، مشوار ساعتين، كانت الساعة تلاتة الفجر كده، رجعت البيت وكانت نايمة.. ضربتها على دماغها لحد ما ماتت وكان معايا شنطة سرقت فيها كل اللي كان في البيت، بس حاجات خفيفة؛ بحيث تبان الحادثة سرقة، بس ما نزلتش بالشنطة وخبيتها في ركن في البيت يستحيل حد يعرف يوصله.. نزلت جري تاني وركبت لإسكندرية ووصلت البيت للواد جاري ده وكان معانا اتنين كمان حوالي الساعة سبعة الصبح.. ولحظي الحلو كانوا لسه نايمين.

دخلت وعملت نفسي نايم، وهما صحوني.. لحد ما رجعنا وأنا ما سبتش إسكندرية أصلًا ولا أعرف أي حاجة لحد لما سمعت الخبر، عملت نفسي مصدوم وبكده مفيش ولا دليل يثبت إني قتلتها، ولحد دلوقتي الحادثة متأيدة ضد مجهول..

«مالك» في حالة صدمة من القاتل المحترف الذي يجلس أمامه.. عقَّب «كريم»:

– لسه مصمم تبلغ عني؟

– «كريم».. انت مريض، وأنا قدرت أحدد مرضك أخيرًا.

– تاني مريض؟!

– أيوه..«كريم»، انت عندك «عصاب neurosis»، بالتحديد عندك «عصاب نفسي psychoneurosis»، وده نفسي المنشأ ناتج عن النشأة غير السوية اللي انت نشأتها.. وده اضطراب بيخلي حياة الشخص أقل سعادة، وده شائع جدًّا عامة.. وكل أعراضه عندك، زي القلق والخوف اللي مصاحبينك دايمًا.. توتر ونقص نضج.. عدم تحمل كامل لأي ضغط وإحباط وأعراض تانية كتير كلها عندك وكل حاجة حكتهالي، أعراض العصاب ظاهرة بوضوح زي الشمس فيها، ورغم كده مريض العصاب مش بيبان قدام الناس إنه مريض، هو مظهره بيبقى كويس وسلوكه مش بيكون شاذ للدرجة الملحوظة وأسبابه، زي ما قلتلك، مشاكل الحياة من الطفولة، اللي بتتمثل في النشأة بتاعتك الناتجة عن اضطراب العلاقة بين والديك، بس العصاب في حالتك اتطور بدرجة مخيفة، اتطور لحالة أنا نفسيًّا مش قادر أحددها، بس انت أوقات بتبقى مغيَّب أو مخدوع أو دماغك غصب عنك بتعيد الأحداث، أنا واثق وانت بتقتل «كاميليا» مراتك، عشان بتقول إنها خانتك زي ما انت شايف، إنك ساعتها ما كنتش شايف «كاميليا»، انت كنت شايف «نجوى»، أمك الخاينة ودماغك صورتلك إن «كاميليا» زيها بالظبط.. «كريم»، انت خطر دلوقتي، أنا لازم أبلغ عنك، مش عشان أسجنك صدقني، أنا ماليش مصلحة في كده، أنا هعمل كده عشان أعالجك، وده آخر كلام عندي.

– عظيم.

***

انتهى الشريط عند تلك الجملة.. «مريم» مصدومة لا تدري ماذا تفعل.. خمّنت ما حدث.. «كريم» قتل «مالك» بالتأكيد، خصوصًا أن التاريخ الذي كان مكتوبًا على الشريط كان ليلة الحادثة.. عليها أن تتصرف بسرعة.. غيّرت ملابسها ونزلت وركبت السيارة..

***

أفاق «كريم» بصعوبة بعد أن نام طويلًا.. آثار الثمالة ما زالت عليه إثر الكمية الكبيرة التي شربها ليلة أمس..حاول استجماع قواه.. لا يزال ملقى على الكنبة، يبدو أنه فقد وعيه.. فتح درج المنضدة التي أمامه ليأخذ علبة سجائر ودقّق قليلًا، وفجأة أصبح كمن لدغته عقرب.. لم يجد الشرائط.. بحث مرة أخرى، لكنه لم يجدها.. هرع إلى غرفته وفتح درج المكتب لكنه لم يجد المسدس أيضًا!! حاول استيعاب ما يحدث.. أشعل سيجارة وهدأ وفكر قليلًا.. في اليوم الأسود الذي ذهب فيه إلى المستشفى لم يكن أحد بالمنزل سوى «مريم»، هي التي أوصلته إلى المستشفى وهي التي عادت إلى المنزل وكان لا يزال مفتوحًا.. لا أحد غيرها دخل منزله.. لبس ونزل إلى منزلها، رن الجرس بسرعة، فتحت له «نرمين» مفزوعة ولم ينتظر حتى تنطق:

– اندهيلي «مريم».

– «مريم» مش هنا، هي نزلت من الصبح.

– طيب هاتي رقم تليفونها بسرعة.

- هو حصل حاجة يا دكتور؟

- لأ مفيش، عايزها في موضوع مهم.

أعطته الرقم وسجله على هاتفه.. صعد بسرعة إلى المترل وهو يتصل بها.. لم ترد من أول مرة، لكنها في ثاني مرة فعلتها:

- ألو.

- أيوه.. مين معايا؟

- أنا «كريم» يا «مريم»، انتي فين؟

- حمد الله على سلامتك يا دكتور.

- أنا عايز أشوفك ضروري، انتي فين؟

- هو أنا عند أهلي دلوقتي، ممكن بالليل تكلمني.. فيه حاجة يا دكتور؟!

- لأ، عايز أشكرك على اللي عملتيه معايا.

- لا شكر على واجب يا دكتور، بالليل نتقابل بإذن الله.

صوتها يبدو طبيعيًّا جدًّا، لا قلق ولا توتر وكأنها لا علم لها بأي شيء!! إذًا مَن فعلها؟ حاول «كريم» تخيُّل أن لصًّا مثلًا دخل المترل.. لماذا يسرق بضعة شرائط ومسدسًا فقط؟! فمحتويات الشقة بأكملها كما هي!!

القلق يقتله.. رجع بذاكرته إلى يوم أن قتل «مالك».. هل ذهب بالشرائط جميعها إليه في هذا اليوم، أم أنه ألقاها هي والمسدس بعد أن

قتله؟! خمّن أن يكون هذا ما حدث ليرتاح قليلًا ويريح باله وسيتضح كل شيء في المساء.. أشعل سيجارة أخرى ودخل غرفته وأخرج رزمة الورق المكتوب أعلاها «مرايا الروح».. أمسك بالقلم وظل ساعتين يدوّن.. بعدها غيَّر ملابسه وأخذ سيارته وذهب إلى كافيه يحبه في أحد المولات المتواجدة بأول طريق إسكندرية..

الساعة حوالي الخامسة عصرًا ولا يوجد بالكافيه سوى «كريم» وشاب، شعره طويل، ينظر إلى هاتفه بتركيز شخص يحل امتحان الرياضة في الثانوية العامة، وسيدة جميلة تبعد عن «كريم» بحوالي ثلاثة أمتار.. شعرها أصفر وعلى وجهها نظارة شمس كبيرة تستحوذ على الكثير من ملامح وجهها.. ترتدي بلوزة سوداء شديدة الأناقة أكملت جمالها الأخّاذ، وفي يدها اليسرى فنجان قهوة..

نظرت لــ«كريم» بتدقيق لحوالي دقيقتين، ثم تبدلت النظرة إلى نظرة حنين خالصة.. أغمضت عينيها المختبئتين خلف النظارة ومالت بظهرها للوراء.. ضحكت من قلبها وحاولت منع دموعها من أن تسيل.. «كريم» لم ينتبه لها مطلقًا.. قامت من كرسيها متهادية وجلست على ترابيزته في الكرسي الذي أمامه.. نظر لها «كريم» بتعجب:

- أي خدمة؟!

- مش فاكرني؟!

- لأ الحقيقة مش واخد بالي.

ابتسمت مرة ثانية بسخرية:

- أنا أعرفك كويس.

- حضرتك كنتي بتيجي العيادة عندي أكيد.

- لأ ما كنتش باجي العيادة.

- لا حقيقي مش متذكر.

- عشان غبي للأسف.

- عيب كده، أنا بكلمك بذوق.

- «كريم».. «كريم جسار».

نطقتها بهدوء وأطالت في الاسم.

- ده انتي تعرفيني بجد بقى!

- أيوه أكيد عارفاك، أُمال هقوم وأقعد أتكلم مع حد مش عارفاه؟! انت قاعد مستني مين؟!

- ممكن تقلعي النضارة عشان أشوفك؟

- بجد أنا متضايقة، مش مقتنعة إنك ما عرفتنيش!! ما حستش بصوتي؟! ما حستش بروحي اللي هي روحك؟! ما حستش بحياتك يا «كريم»؟!

ثم خلعت النظارة عن وجهها.

تطلع إليها «كريم» وعلى وجهه جمود غريب بعدها تدريجيًّا تحوَّل

هذا الجمود إلى نظرة لا أستطيع وصفها، نظرة امتزج فيها الصدمة والدهشة والحزن والسعادة معًا.. نطق بوهن بالغ:

- «دارين»!!

صمت تام لدقائق، لا توجد سوى نظرات ألم وحنين وشريط مدته ست سنوات يدور في ذهن كليهما.. نطقت «دارين» أخيرًا:

- ازاي ما عرفتنيش يا «كريم»؟!

- مش عارف.

- مهما أوصف انت واحشني ازاي مش هكفي.

- ....

- عارف؟ أنا بقالي شهر كامل في مصر مش بعمل حاجة غير إني بدوَّر عليك.. والقدر يجيبك لحد عندي وأنا في مكاني! صدفة مش مقنعة.

- صدفة؟! ده عبث.. سبتيني عشان الحياة ما هي إلا عبث والتقينا برضه بعبث.

- وليه ما نقولش إنها صدفة ليها هدف مش عبث؟! إحنا سبنا بعض من سنين عشان هدف إننا نتلاقى تاني هنا بعد سنين.

- ما تقوليش سبنا بعض!! أنا ما سبتكيش ولا يوم، انتي اللي سبتيني بكل أنانية وبجاحة وسبتيلي حتة ورقة فيها كام كلمة وأنا زي المجنون مش عارف أعمل إيه.. سبتيني لوحدي للألم والعذاب وانتي

عايشة حياتك.

- مش هحاول أبرر ومش هدافع عن نفسي.. لو عندك ذرة شك واحدة إني سبتك واختفيت بمزاجي قوم حالًا دلوقتي وامشي.

- طيب عملتي ليه كده؟

- «كريم».. أنا من يوم ما سبتك ما عشتش ولا يوم واحد حلو.. عمري ما نسيتك ولو للحظة واحدة بس.. بعد السنين دي كلها أول ما شفتك عرفتك في دقيقة عشان صورتك عمرها ما فارقت خيالي ولو ثانية، روحك اللي هي روحي ما طلعتش من جسمي ولو لثانية، عشان لو طلعت كنت هموت.

- وأنا برضه مش محتاج أقولك حجم العذاب والألم اللي سبتهولي من يومها..

يمكن ما عرفتكيش على طول عشان النضارة أو عشان دماغي وقلبي ومراية روحي اللي اتسكّروا ومش قادرين يشوفوا أي حاجة، بس أول ما شوفتك واتكلمت معاكي روحي رجعت.. اتجوزتي يا «دارين»؟!

- أكيد لأ.. وانت؟

- أنا كنت متجوز وكان عندي ابن، بس ما حدش بقيلي.

- وحشة أوي الحياة!

- أكتر مما تتخيلي أو يصورلك عقلك.

- تيقنت من ده من ساعة ما اختفينا من حياة بعض.

- «دارين».. أنا حاليًا وبعد ما خسرت كل حاجة وما بقتش باقي على حاجة ما بقاش قدامي غير فرصة واحدة بس للحياة.

- نتجوز دلوقتي حالًا.

- عرفتي ازاي إن أنا هقول كده؟

- لأني عايزة كده، وزي ما قلتلك، روحك هي روحي يا حبيب العمر.

- بس فيه شرط واحد.

- إيه؟

- إحنا بكرة هنسافر ونسيب البلد دي وهنروح أي حتة.

- وأنا موافقة.

قام «كريم» وحضنها في وسط المكان حضنًا يعوِّض سنوات الفراق.. حضنًا لمس قلبه ولمس روحه وأصلح كيانه.. «دارين» كانت في حاجة إلى هذا الحضن من سنوات.. تزوجا يومها وقضيا أجمل ليلة في حياة كل منهما في أجمل فندق في مصر.. ذاب جسداهما في بعضهما وكأن لثنايا جسد كليهما مدخلًا في جسد الآخر.. احتفلا وشربا من الخمور أشهاها.

في صباح الليلة المنتظرة من سنوات، توجَّه «كريم» و«دارين» إلى مطار القاهرة الدولي بعد أن وجد أنه لا توجد في هذا اليوم تذاكر

لأي بلد خارج مصر، قرر الذهاب بصحبة «دارين» إلى شرم الشيخ، بعدها يذهبان إلى أي بلد أجنبي.. ما إن وصلا إلى المطار حتى توجَّه «كريم» إلى الشباك لحجز تذكرتين إلى شرم الشيخ وكانت أول رحلة بعدها بساعتين.. نظر له الضابط بارتياب لكنه لم يُظهره وأمره بالانتظار ساعتين حتى ميعاد الطيارة وأجرى مكالمة..

«كريم» و«دارين» في ساحة الانتظار:

– أنا مش مصدقة إن إحنا مع بعض خلاص يا «كريم».

– لأ صدقي، إحنا بالفعل مع بعض وهنعيش أجمل سنين في حياتنا سوا.

تكلما كثيرًا ورسما أحلامًا وردية لمستقبلهما.. بعد نصف ساعة جاء الضابط «هشام» ومعه الرائد «أحمد» وبعض المساعدين، ومعهم «مريم».. توجهوا بسرعة إلى «كريم» والأسلحة في أيديهم.. صُدم «كريم» من المنظر ونظر إلى «مريم» بغلٍّ شديد.. وقف «هشام» بمحاذاته والمسدس في يده:

– سلِّم نفسك يا «كريم»، إحنا بندوَّر عليك بقالنا كتير، وبعد ما سمعنا الشرايط وطابقنا الطلقة اللي اتقتل بيها «مالك» بنوع مسدسك لقيناهم واحد.

«دارين» لم تفهم ما يحدث:

– «كريم».. فيه إيه؟ أنا مش فاهمة أي حاجة.

تدخل الضابط:

– اللي معاكي ده قاتل يا أفندم، قتل الدكتور النفسي اللي بيعالجه وقتل مراته وغيرهم كتير.

– دكتور نفسي؟ ومراته؟! «كريم».. فيه إيه؟ اللي بيقوله ده حقيقي؟

ابتسم «كريم»:

– طبيعي كان لازم ده يحصل، أكيد الحياة مش هتيجي وتضحكلي دلوقتي!! «دارين».. كان نفسي أقضي اللي فاضل من عمري معاكي بس يا خسارة مش هيحصل.

بسرعة شديدة، خطف «كريم» المسدس من يد «هشام» وصرخ بأعلى صوت:

– كله يرجع ورا واهدوا كده يا إما رد فعلي مش هيعجبكم.

أمر «هشام» مَن معه بتوخي الحذر وتنفيذ أوامره.. كانوا كلهم في ذعر ممسكين بأسلحتهم وفي حالة ترقب.

أمسك «كريم» بالسلاح بعصبية وخوف:

– «دارين».. ركزي معايا، لما ترجعي بيتي هتلاقي رزمة ورق مكتوب عليها «مرايا الروح» في مكتبي.. تاخديها وتكتبي كل اللي حصل امبارح واللي هيحصل النهارده وتنشريها.. ونص ثروتي ليكي، والنص التاني لأولاد «مالك» ومراته...

لم يكمل حتى قاطعه «هشام»:

- مراته ماتت يا دكتور، ماتت بعد ما رحنا وحققنا معاها، ما قدرتش تستحمل اللي حصل لجوزها وما قدرتش تستحمل فراقه بسببك لما قتلته.. فضلت تنزف من فمها ودخلت في غيبوبة بعدها جالها نزيف في المخ وماتت.. كل ده بسببك يا مريض، انت دمرت عيلة ويتمت عيال.

تدخلت «مريم»:

- «كريم».. أرجوك اسمعني، ارمي المسدس وسلم نفسك وأنا واثقة إنهم مش هيعدموك، انت مريض، هيعالجوك لحد ما تخف.

صوت «كريم» كان مرتفعًا لأقصاه وكان في حالة تُقارب الانهيار العصبي:

- اسكتي انتي خالص، انتي السبب في كل اللي أنا فيه دلوقتي.. «دارين»، اعملي كل اللي قلتلك عليه بالتفصيل وسامحيني، بس أنا مش هقدر أعيش من غيرك تاني.. أنا محكوم عليَّ بالإعدام حاليًا، ودي حاجة منتظرها من زمان، بس للأسف، يوم ما اتحققت كنتي انتي جيتي.. سلام يا «دارين»، وأكيد هنتلاقى تاني بس في مكان أحسن من ده.

وجَّه «كريم» المسدس إلى فمه..

بعدها بأسبوع..

«دارين» على مكتب «كريم» في شقته ممسكة بمرايا روحه تكتب الفصل الأخير.. «دارين» كانت في حالة صدمة بعد أن عرفت حقيقة «كريم»!! هذا الذي أمامي في الورق ليس «كريم» ولا يمت له بصلة!! هذا ليس «كريم» الذي قضيت معه أجمل سنوات عمري.. هل كان «كريم» مريضًا وتعافى عندما عرفني ثم عاد إليه مرضه بعد فراقنا؟!

هل الحب الحقيقي قادر على علاج مرض نفسي وتغيير حياة إنسان غير سوي؟! هل وجع الفراق قادر على أن يحيي وحشًا كان ميتًا داخل إنسان؟! هل لهذه الدرجة النشأة السيئة قادرة على تحويل طفل بريء لمريض وقاتل محترف؟

قررت «دارين» وضع آخر جملة كنبذة عن الرواية وبدأت في كتابة الفصل الأخير..

بعد ما حدث في المطار، أطلق الرائد «أحمد»، بسرعة، طلقة على «كريم» في كتفه أفقدته توازنه وأوقعت بالمسدس من يده.. بعدها تم نقله إلى مستشفى الأمراض العقلية للتحقيق معه لمدة 45 يومًا تأكد فيها طبيبه المعالج من حقيقة مرضه، لكنه وجد أن «كريم» حتى إن

عوج فسيظل خطرًا على أي شخص؛ لهذا فسيقضي بقية عمره في المستشفى، وأيدت المحكمة رأي الطبيب المعالج.. كانت «دارين» تزوره من حين لآخر، لم تتزوج، وظلا معًا في هذا الحب إلى النهاية..

بعد أن تم نشر رواية «مرايا الروح»، تعاطف الجميع مع «كريم»، والغريب أن «كريم» في سجن المستشفى أصدر روايات أخرى، منها رواية سماها «دينا»، حكى عنها متخيلًا حياتها بالتفصيل.. حاول «كريم» الانتحار عدة مرات، لكنه فشل وكأن ما يبقيه حيًّا هو رؤية «دارين» وتمنّي رؤيتها في مكان أفضل فيما بعدُ.. أين هذا المكان؟ لا أدري ولا هو يدري..

«كريم جسار» كان أول روائي مريض نفسيًّا ويعيش سجينًا!

